سيراي ساهينار

الخادمة

ترجمة: أماني محمد صبحي

رواية

Telegram:@mbooks90

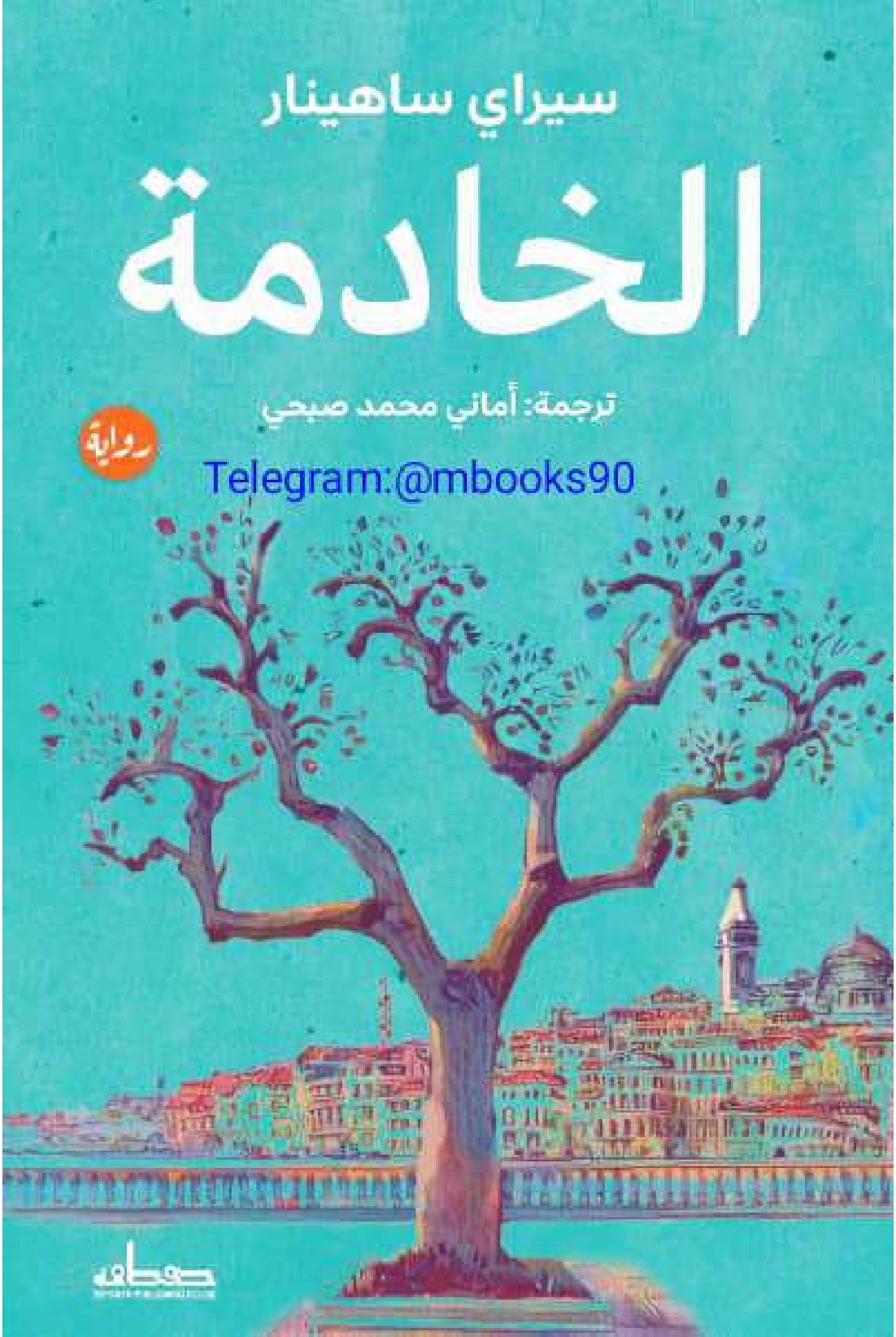

أماني محمد صبحي/ مدرس بقسم اللغة التركية وآدابها جامعة الأزهر، ترجمت رواية "طبيب الأناضول" لأحمد حمدي تانبينار و"التفاح الأخضر" لناظم حكمت و"الرجل الذي فقد وطنه" و"هم أيضًا كانوا بشرًا" لجنكيز داغجي في رسالتها للدكتوراه، والمرشحة ضمن القائمة القصيرة للفوز بجائزة الشيخ حمد للترجمة والتفاهم الدولي عام 2022 عن روايتها "الرجل الذي فقد وطنه".

.....

الخادمة

طبعة 2024

رقم الإيـــــداع: 14396 /2024

الترقيم الدولي: 978-977-821-427-7

جميع الحقوق محفوظة ©

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any from or by means electronic or mechanical including photocopying recording or by any information storage and retrieval system without prior permission in writing of the publishers.

الناشر

محمد البعلي

إخراج فني

علاء النويهي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

This is a full translation of the novel: Kul (Serf) © Seray Şahiner - Kalem Agency

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات

49 شارع المخزن- العمرانية- الجيزة- مصر

البداية

لم تستسغ مِرجان هانم أبدًا مناداتها بمِرجان هانم؛ إذ إنها كانت تعلم أن هذا اللقب لن يرفع رتبتها؛ فضلًا عن أن خاصتها «مِرجان هانيييم» كان ينحدر من الأعلى للأسفل، فمناداتها من أمامها بمِرجان هانم؛ كان بمثابة إقامة مسافة وتقرير عدم المساواة مثل إمساك يد إبريق الشاي الساخن بطرف خرقة؛ أمَّا مَن خلفها فكانوا يقولون مِرجان خاصَّتنا، فتعالوا لنعرف مَن هي مِرجان خاصَّتنا هذه.

لم تكن مِرجان هانم عاطلة، لكن مهنتها لم تكن تتطلب مهارة، ولأنها لم تكن موظفة مؤهلة أُسقِطَت حقوقها، ولم يكن لها تأمين أو ضمانة للغد؛ إلا أنه لا يمكن التفكير هكذا بشأنها... حتمًا أعزائي! فأكثر المال كان مع أمثال مِرجان هؤلاء؛ مَن ينامون الليالي جالسين جزَاء امتلاء الوسائد أسفلهم بالنقود.

في كَم ساعة تمسح مِرجان سُلَّم العمارة؟ لنَقُل في ساعتين أو ساعة أيضًا؛ يدها رخوة؛ وإلا فإن المساحة الواسعة تُنظَّف في ساعتين يا امرأة! كما أن عملها ظاهري، ليحترم الإنسان عمله وإلَّا فلا داعي له؟! إنها لقمة عيشك! إن كنتِ ستمسحين العمارة فستجعلين أرضها تلمع.

Telegram:@mbooks90

تمسح مِرجان هانم العمارة مقابل 12 ليرة من كل شقة، وتوجد في عمارتنا خمس شقق، كم تجمع؟ 60 ليرة. لو أنها تمسح في اليوم ثلاث عمارات، كم يوم في الأسبوع؟ سبعة في ثلاثة يساوي 21، و21 ضرب 60؟ ستون في عشرة ستمئة... ألف ومئتان... ألف ومئتان وستون، ناهيك عن أن كل عمارة ليست مبنيَّةً على شقة واحدة مثلنا، فالعمارات الجديدة المبنية بالقرب من الساحل يقولون إن الطابق فيه أربع شقق، فلا تقولوا إن مكسب مِرجان ألف ومئتان وستون، لأنكم لو حسبتم العمارات ذات الشقق الكثيرة لوجدتم أنها تكسب أكثر مني ومنكم، كما أن مِرجان لا تعمل بمفردها تمامًا، فهم مجموعة: أختها وسِلفتها وأخت زوجها وأخريات...

لكن ماذا عن دَقِّ الجرس في الصباح الباكر؟ أي حقٍّ للسُّلَّم في إيقاظي من نومتي الهنيئة؟ دعكم مني! حتى الجان يَثِبُ للأعلى قائلًا: «إنها عطلة نهاية الأسبوع... سننام!»، لا بل إني أنا مَن جعلتهم يقرعون الجرس صباحًا لأني لم أضع المياه من الليل أمام الباب؟! انظروا لمن أكون زوجته؛ للرجل الذي أنجبت منه أطفالي وأرسِله

كل يوم للعمل بثياب نظيفة للغاية، وأعدُّ له كل مساء مائدةً يظنُّ مَن يراها أن ضيفًا عزيزًا آتٍ، مَن أسكن إليه وأراضيه؛ حتى أنا لا يمكنني إيقاظ ذلك الرجل يومًا ما في نهاية الأسبوع، وأنت من أجل أن تُنظفي؟! ماذا سيحدث يعني؟! قلت لها تعالي من بعد هذا لمسح عمارتنا في منتصف الأسبوع، فردَّت: منتصف الأسبوع ممتلئ يا هانم؛ كما لو أنها طبيبة استشارية صاحبة عيادة خاصة، ثم صِرت أضع الماء بالصابون أمام الباب ليلًا، فعادت تدقُّ الجرس مرة في الشهر لطلب نقودها. قُل عنها قروية أو حتى جاهلة... فو الله إنها امرأة مثل المصرفي، لا تفوِّت شهريتها يومًا. ماذا لو وضعت المال أمام الباب أيضًا... لكن إن شرق، نحن أيضًا لا نجمعه من الشارع.

تذهب مِرجان هانم مرارًا وتكرارًا إلى جامع سُمبل أفندي، وإن تساءلتم لماذا، فلأن أحفاد سيدنا علي يرقدون فيه: السيدتان فاطمة وسكينة... شجرتا السرو اللتان تخترقان سقف ظُلَّة الجامع الخشبية القابعة في باحته، وتشكِّلان أساسه وكأنما تحيطان ببعضهما البعض كي لا تنهارا.

وبحسب كلام مَن يسردون المناقب واضعين أياديهم على أفواههم ثم قلوبهم كلَّما مرَّ ذِكر أهل البيت، فقد نُقِلَت فاطمة وسكينة ابنتا سيدنا الحسين مع الآخرين الناجين من المذبحة إلى الشام على إثر استشهاد الحسن والحسين ابنَي سيدنا علي في كربلاء، وهناك وقعتا في الأسر لمدة طويلة. ثم فرَّت الأختان من ظلم الأمويين في الشام، وانضمَّتا إلى جيوش الصحابة الكرام وقَدِمَتا حتى إسطنبول، وكان بها حاكم رومي في ذلك الوقت، فطلب فاطمة وسكينة لابنيه، وعندما رفضتا منحهما مُهلةً لتقبلا. تعانَقَت الأختان وأخذتا تتضرَّعان إلى الله: يا الله! يا علي! يا الخضر ذا الفرس الرمادي! خُذونا إليكم ولا تتركونا بين أيدي الظالمين. وعندما انتهت المهلة عثر القادمون لأخذهما على شجرتَي سرو ملتفَّتين حول بعضهما البعض، وباسطتَي فروعهما للسماء كأنهما تدعوان.

كانت مِرجان هانم تنظر إلى جذعي الشجرتين الملتفَّتين حول بعضهما البعض الباديتين من بين أسلاك نافذة الظُّلَّة الخشبية، وتفتح يديها إلى الله كفروعهما وتبدأ التَّوسُّل قائلة **«أيتها البنتان، أنتما فقط من يفهمني! لا العظماء ولا البشوات ولا**

البكوات الراقدين في القبور الأخرى، أنتما فقط مَن يفهمني، وإن سألتما لِم؟! لأنكما امرأتان، وأنا أيضًا امرأة، خلقكما ربي معًا ولم يفرقكما حتى في الموت، لا تقولا أبدًا لقد متنا! في هذه الدنيا نحن نحتاج إلى رفيق حتى في الموت. يا أيّتها السيدتان، لأجل حرمة وجه عليّ، ولأجل الحسن والحسين، إمّا أن تأخذاني بينكما أو يعود زوجي أدراجه».

تذهب مِرجان هانم إلى جامع سمبل أفندي كثيرًا، وإن تساءلتم لماذا فلأنها ترقد وحيدة.

مضت شهور منذ ذهاب زوج مِرجان، ولا يُعرف إن كانت تشتاق لزوجها أكثر أم لطفلٍ لها، فقد كانت تستيقظ في بعض الصباحات متلهِّفة على طفل تُنيمه في حضنها. نعم، لن يكون لمِرجان هانم أبناء! يقول الطب هكذا، ولم يرسل مَزارٌ ولا جامعٌ ولا وليٌّ ولا عظيمٌ إشارةً تُكذِّب الطب.

ثمة شيء يُدعَى ألم الأبناء للنساء اللاتي لم يُنجِبن، وشيء يُدعَى الشوق للأبناء لمن لم يصبحن أمهات، كانت مِرجان تعاني ألم تُخيِّلها لطفلها وليس تذكُّرها له.

وعلى هذا المنوال كانت تطلع إلى حدائق الأطفال بينما تسير إلى جامع سمبل أفندي... كانت هناك رمال في الحدائق قديمًا، لكنها الآن لم تعد موجودة. يجلس الأطفال على الأرض فور انزلاقهم على الزحلوقة، أمّا أمهاتهم فلا يتوقَّفن عن ترديد «جُرِحَ ابني! جُرح ابني!»، ومن ثم يُكملن حديثهن مع اللاتي يجاورنهن في أيٍّ ممَّا لا يسمن ولا يغني من جوع.

اللهم لا اعتراض على قضائك، ولكن لمن تعطي الأطفال؟!

كانت والدتها في طفولتها تُركِبها الحمار بينما تذهب إلى الجدول وفي القرية أيضًا، كانت هذه فسحتها! إنها ابنة يا عالم... لو كان لدى مِرجان ابنة كانت ستبحث عن طريقة لربطها بحزام أمان على الحمار الذي تمتطيه.

أكان لدى زوج مِرجان الحق في الذهاب؟!

ظلت مِرجان تقول في البداية إنه سيلفُّ ويلفُّ ثم يعود. حتى إنها كانت تقول قبل

ذهاب الرجل: «ليذهب إن شاء»، وحتى في وجهه: «اذهب إن شئت»!

لم يكن الرجل يضحك في وجه الناس ولا يتحدث بكلام حلو... أي رجل ينفق مال زوجته التي تكتسبه من مسح السلم ويصرفه على الحشيش؟! لا بُدَّ أنه لا يحب زوجته لو كان يحبها ما فرَّط بها، لو كانت لا تهون عليه لَمَا دخَّن الحشيش، وإن كان لا بُدَّ له من شربه لذهب وعثر لنفسه على عمل، ليصرف على نفسه على الأقل. لم يكن يحبها.

وإلا فإنها كانت تشاهد في المسلسلات وجود أزواج كُثر في الدنيا، فليذهب إن شاء. أكان لها زوجًا؟ لم يكن. أمَان! فليذهب إن شاء على الأقل سينقص حِملٌ من على ظهر مِرجان، في الحقيقة لم يكن ما فعلته مِرجان طردًا بشكل كامل، كان إنذارًا،؛ أفلأجل كلمتين خرجتا بغتةً من فمها... لا بُدَّ أن الرجل كان يبحث عن حجَّة، وإلا فإن الرجل لا يذهب بقول «إذا شئتَ فاذهب»... لا بُدَّ أنه لم يكن يحبها.

يا للرجال التي كانت تشاهدهم مِرجان هانم في المسلسلات! يكادون يرتمون عند أقدام زوجاتهن طلبًا للعفو عن أخطائهم، فليذهب إن شاء. ذهَبَ.

مرحى! لم يفعل زوج مِرجان أيًا ممَّا يفعله الأزواج في التلفاز، ومِرجان كذلك يا أعزائي ليست في انتظار «مفاجئاتٍ كبيرة»، ولا «إثارة أخرى»، ولا «إضافة جديد لعلاقتهما المهترئة».

مهما يكُن، ليت زوجها الآن بجوارها يداعب شَعرها، مَن يغيِّر المصباح في البيت إن انفجر... إنه رفيق الروح الذي تتبادل معه الهموم إذا حدث لها شيء، ولو أن زوجها لم يكن يداعب شَعرها ولا يصلح أو يعدل شيئًا...

كان قد بدأ في الآونة الأخيرة يروي الزهور... لا بُدَّ أن الرجل أصيب باكتئاب لأنه لم يكن له أبناء... فنذَرَ المسكين نفسه للزهور... يشهد الله أنه ما واجه مِرجان يومًا قائلًا: «لن يكون لك طفل».

أكانت مِرجان تحب زوجها؟ لا، لكن لا بُدَّ لكل بيتٍ من رجل. حسنًا، كان يأكل ويشرب ويرقد، أمَاان! لا يهم ما تكسبه مِرجان أو ما تضعه على المائدة ولا ما

سيأكل، سيأكل ما أمامه أيًا كان، لم يكن يطلب إلا الحلوى بعد شربه الحشيش، وما كانت تستصعبه مِرجان أنها بعد مسحها للسلالم طوال اليوم ومجيئها للبيت وإعدادها للطعام كان عليها أيضًا أن تعدّ الحلوى، كأنه كان مدمنًا للبقلاوة، وإن عجنت شيئًا آخر لأنه أرخص وأسهل لم تكن تُرضي زوجها، كانت مِرجان تتذمّر بين الحين والآخر: «حتى في إريكلي بابا بيت الجمع(1) لا يعدُّون حلوى كثيرًا بقدرنا!»؛ ومع هذا لو كان زوجها بجوارها... لكانت استمرّت في نفس روتينها المميت، مُدّعية وجود حياة في البيت.

كان معه حشيش... وكم من زوج في البلد... يذهب مدمنًا للخمر إلى زوجته أو إلى امرأته ويضربها، وزوج مِرجان كان يدخّن حشيشًا ليس إلا... كانت هناك حجة للشجار على الأقل، كان هناك شخص يتشاجر في البيت على الأقل... كان هناك صوت... ولكن لا... ماذا كانت ستفعل مِرجان هانم بالنقود إن لم يدخّن بها زوجها؟ لم تكن على أيةِ حال لتخرج في جولة حول العالم بما جمعته من تقتيرها ونقود حشيش زوجها... فليدخّن إذن.

كما أنها كانت ترى أنه من الجيد أن تمضي حياة المرء في الشجار، فمَن تمضي حياته دون شجار هو من لا يهتم بأحدٍ في حياته. نعم، ذهب زوجها بقولها له «إذا كنت تريد الذهاب فلتذهب»، لكن مَن يدري كيف كان عقله ذلك اليوم؟ لفّ الرجل سيجارة بحجم قرطاس لبّ قبل شجارهما ودخّنها.

بعد ذهاب زوجها لم تقل مِرجان «أوه؛ مصاريف أقل وهمٌّ أقل!»، على الرغم من أنه وفقًا لمِرجان: شيئان في الدنيا لا يُخلّصان الإنسان من الهم: أولهما قلّة المصاريف والآخر الوحدة.

أيتها السلطانتان، كنتما معًا اثنتين حتى في رقادكما، وماذا ستفعل مِرجان هانم في الحياة بمفردها؟ ثمة أغنية تقول «أنجبت طفلًا وأسّست عملي»... لكن معذرة من الجميع، لا تطمح مِرجان هانم لتأسيس عملها أبدًا، رغبتها الوحيدة أن يعطيها الله طفلًا، ماذا ستفعل مِرجان هانم لتترقّى في عملها؟ هل ستمسح درج ناطحة سحاب؟

أتى صوت الشحّاذة التي تجلس على باب الجامع: «رضي الله عنكم...» وقفت

مِرجان بعد أن دعت للسلطانتين أمام مقبرة الخطاط عثمان التي في حديقة الجامع لتستمدّ منه القوة، كانت بالطبع تعلم معنى خطّاط، مَن تظنُّون مِرجان؟ لقد شاهدت كل المسلسلات العثمانية.

فتحت مِرجان يديها: **أنت كما المكتوب هنا، خطّاط عظيم الشأن.** وبعد أن اقتنعت من استرضاء الوسيط حوّلت خطابها: **اللهم امنحني قدرًا جميلًا مثل كتابة هذا الخطاط...**

فتحت الشحاذة يديها: «أضحَك الله وجوهكم!».

ربي لا تدعني فردًا في هذه الدنيا... فأنت الواحد الأحد يا الله، فديتك نفسي، لا تُبقِني وحيدة...

تردّد صوت الشحاذة «أسعدك الله بالأبناء!».

استندت مِرجان على أسياخ المقبرة: **فديتك نفسي يا الله، لأجل خاطر السلطانتين...**

«صدقة لله...».

لا تردّ يديّ خاويتين يا الله.

وبينما هي خارجة من الجامع نادت الشحاذة «ليهبكم الله مرادكم أيًا...»، فأخرجت مِرجان ليرتين من جيبها ووضعتهما في راحة المرأة، **«فديتك نفسي يا الله، أتوسّل إليك يا ربي! تصدّق عليّ وامنحني السعادة!».**

سارت مِرجان الطريق الهابط من قوجا مصطفى باشا إلى صمدية باكية، حتى تلك الشحاذة قد أوتيت سؤلها... أوتيته بالطبع... انظري كيف أخرجتِ النقود التي في جيبك ومنحتِها لها؟! والحال أني أمسح سلالم دور مقابل هذه النقود... 16 شلّمة، تأخذها بالطبع، لماذا؟ حسنًا هي لا تفارق باب الله، لكنها لا تغفل سلك سلوك العبودية، تأخذها بالطبع. أما أنتِ؟! دلّلي السلطانتين! امدحي الخطاط! ليكن خطّه جميلًا مثل خطه... هل تقرّبتِ إلى زوجك يومًا مثلما تقرّبتِ من هؤلاء الموتى؟! غير

أنهم عظماء، وخاصّتي مُتسكّع. ولو كان متسكّعًا لكنه حيٌّ على الأقل...

حاولت مِرجان الوصول إلى زوجها عبر الهاتف وليس عن طريق الأولياء فقط، انتظرت عدة أسابيع: انتظرت ستة عشر يومًا بالتمام والكمال، قائلة: حسنًا، سيتصل الرجل. حتى إنها في أول يومين ظلّت تُردّد: **سيعود الآن**، ثم في الثلاثة أيام التالية كانت تقول: **سيتصل على أية حال**، والخمس أيام التي تلتها ظلّت تترقّب اتصاله في أي وقت، ثم في الستة أيام التالية انتظرت داعية: **ليتّصِل يا ربي. فديتك نفسي!**

اتّصلَت مِرجان بزوجها مساء اليوم السادس عشر، كانت تحسب أن الرجل سيرد قائلًا: «حبيبتي»، أليس هذا ما يحدث عادة؟! كل الأزواج الذين على التلفاز يجيبون على هواتفهم قائلين: «حياتي»، «حبي». ظل هاتف زوجها مغلقًا مهما اتصلَت، لم تكن رسالة «هذا الهاتف مغلق...» تأتي على الفور، بل كانت تنتظر مدة طويلة ثم تبدأ، يعني هذا أن زوجها لم يغلق هاتفه لئلّا تكلّمه مِرجان إذا اتصلت؛ ولذا نفد شحنه، أي أن الهاتف لم يغلَق قصدًا، وإنما اضطراريًا. أأخذ زوجها يا تُرى الشاحن معه وهو يغادر البيت؟! لا بُدّ أنه سيجد شاحنًا في أي مكان ويشحنه على أية حال، في اليوم السابع عشر. إن هاتف زوجها في الحقيقة طراز قديم، وفي اليوم الثامن عشر، لم يعد هناك أحد يستخدم هذا الهاتف الآن ليجد الرجل شاحنًا فورًا عندما يريد، وفي اليوم التاسع عشر عثرت على هاتف زوجها بين مساند الأريكة.

كم زوجًا في البلد تعرف زوجاتهم على الفور إن كانوا الآن في المكان الذي ذكروه لهنّ أو لا عبر تطبيق «أين هاتف زوجي؟»؛ أمّا مِرجان فانتظرت تسعة عشر يومًا اتصالًا من هاتف تحت الوسائد التي تجلس عليها بسبب زوجها الذي لم يفكّر حتى في أخذ هاتفه وهو خارج.

كم زوجًا يوجد في البلد؟ كثيرٌ، لكن... يقولون للعروس الجديدة كم هو قبيح زوجك يا فتاة! فترد عليهم: وإن كان ليس موجودًا منه في بيت أبي.

فتحت مِرجان التلفاز بمجرد أن عادت من الجامع إلى البيت، ثم دخلت إلى المطبخ، وبينما كانت تستمع إلى صوت التلفاز من جهة، كانت من جهة أخرى تحضّر لنفسها طعامًا، ثم ذهبت بالصينية إلى الصالون، وجلست أمام التلفاز، تناوَلت

طعامها لوحدها، أصبح جلوس مِرجان مع التلفاز عادة، فمع مغادرة زوجها اضطرت إلى ترك فراشهما، وكانت تأخذ وسادتها ولحافها وتنتقل للنوم على الأريكة التي أمام التلفاز.

وماذا فيها إن أرسلت زوجها؟! صارت تصرف المال الذي كان ينفقه زوجها على التلفاز، على كهربائه وبطاريات ريموته وحاجياته... كان التلفاز يظل مفتوحًا طوال الوقت الذي تمضيه مِرجان في البيت، فلم تكن تستطيع النوم لو لم يكن هناك صوت فيه، أصبح أقرب أقربائها الآن هم ممثلو المسلسلات، ووصلت إلى مرحلة أشبه بمرشّحي العروس والعريس الذين في برامج المسابقات الذين كادوا يعلّقون ربع جنيه ذهب لهما في الأفراح.

كان التلفاز جيدًا، ظلت مِرجان تشاهده في شبابها، وعندما كبرت صار هو يشاهدها، فكانت تنام وريموت التلفاز على الوسادة، فيضعان رأسيهما على وسادة واحدة، بات التلفاز قرينها.

تذهب مِرجان هانم مرارًا وتكرارًا إلى جامع سمبل أفندي، وإن تساءلتم لماذا؟! فلأنها ترقد مع التلفاز.

يكون التلفاز مفتوحًا حين تستيقظ صباحًا، صوت في البيت... لو كان لديها ابن كان سيوقظها مع جلبة الصباح متذمّرًا «أنا جائع أنا جائع»... آه! حلّ التلفاز محلّه الآن... كما كانت يد الصغير في راحتها ستحلُّ محلَّ الريموت الراقد في يدها... كانت ستتدلّل على ابنها وتقول محتضناه: «لننم قليلًا لالا»، لم يكن يفرق معها أن يكون وليدها بنتًا أو ولدًا، ليكن سليمًا، ولِم الكذب؟! كان قلبها يرغب في صبي... اسمه حيدر، وممكن علي، أو إرن، كان أجملهم في الحقيقة حيدر، طفل ممشوق القوام، لا يُشبَع من النظر إليه، يا له من طفل وسيم، معاصرًا زمنه يرتدي السترة الجلدية ويطلق شاربه، كم يليق به! ربما تكون لديه حتى غمزة على حافة شاربه... غمزة متهكّمة تظهر بمكر بينما يضحك على مزحة أحدهم، لا تنظروا لجمال ضحكته فهو معروف بوقاره أيضًا حيدر. حين يمرُّ من الحي تشهق الناس «واه»، وتقول هل مرَّ شخص اسمه حيدر في الشارع هكذا سيجتاز الشارع بطابعه المميز، وإن ناداه أحد

من خلفه لغرضٍ ما سيدير رأسه ببطء وينظر؛ كأنه يقول: «تفاح أمريكي... لالا!»، لا يمكن أن ترسله مِرجان لبقالة أو غيرها، يُصيبه كلب أو شؤم، والسيارات تمر مسرعة، كما أن الإنشاءات منتشرة في كل مكان، تزلُّ قدم حيدر... لم تجده مِرجان في الشارع، اللهم لا تمتحن أحدًا في أولاده!

خرجت مِرجان إلى النافذة مسرعة، فنادت بينما تفكُّ حبل السبت الملفوف «بقال!»، وعندما خرج البقال «رغيفًا خبز وخمس بيضات...». لا، لم يكن السَّبَت سيهتزُّ لأنها تسكن في الدور الأرضي.

ستقول لحيدر: «لا عليك، ارقُد أنتَ ولا تخرج من تحت اللحاف فتبرد، ولأركض أنا إلى البقال فاشتري خبزًا وآتي يا بني»، «إيَّاكَ أن تفتح الباب في غيابي لأحد إذا دقَّ»... وفي تلك الأثناء -بحسب أن زوجها غير موجود بالبيت- فهل نهض باكرًا وذهب إلى العمل يا ترى؟ لا بُدَّ أنه وجد عملًا إذن... أوه... أوه! لكن حيدر غير موجود. لعل الله يبتسم في وجهها. وا أسفاه! عانت تلك المسكينة كثيرًا، إن قال لأهبها ولدًا فالزوج الذي سينجب الولد ليس موجودًا، حلَّ الصباح، **والآن هذا التلفاز... إن قلت انهض واشترِ رغيفَي خبز وخمس بيضات لن يذهب.**

زوجها... ألا يقلق الإنسان ويتصل فيسأل كيف الحال... على الأقل قَلِقًا عليّ... حسنًا، الهاتف ليس معك... ألا يمكنك العثور على هاتف بخطّ إذن؟! لننظر إن كان في جيبه ثلاثة قروش يشتري بهم خطًّا؟! عجبًا، هل نسي زوجها نمرة هاتفها؟ أم الأسوأ يا ترى: أنسيَ مِرجان؟!

قلقت مِرجان أن يكون عدم اتصاله بسبب مُصابٍ ألمَّ به لأنها فكَّرَت أنه لا يمكن أن ينساها، إن كان زوجها قد مرض فستعتني به، ويكأنَّه عندما كان سليمًا كان يقوم ويحضر الدنيا عند قدميها؟! مدَّت قدميها على الأريكة واستلقت حتى المساء لتنام: ألا يمكن أن يكون في المشفى أو راقدًا بسبب حاجته وليس من كسله؟ كانت تقول له «أحمق» عندما ترى خراقته، وتقول له «المرحوم» عندما تراه مريضًا. لا، لم تصادف اسم زوجها في سجلّات المشافي وأقسام الشرطة، الحمد لله على هذا! وهذا يعني أنه لا زال هناك احتمال لعودة الرجل إلى البيت.

كانت ترى في التلفاز كذلك النساء يستطعن تخصيص وقت لأنفسهن... وتبعًا لأنها صارت وحيدة لا تقابل أحدًا ولم تعُد مسؤولة إلّا عن نفسها فقط؛ رائع! يمكنها الآن أن تُخصّص وقتًا لنفسها.

حاوَلَت مِرجان أيضًا... ماذا تفعل لتخصيص وقت لنفسها؟ دائمًا ما يتطلب تخصيص وقت لنفسها -بحسب ما رأته في التلفاز- النقود، حسنًا! وثمة أشياء رخيصة يمكنها القيام بها أيضًا: الهوايات، ذهبت وابتاعت شلّتَي صوف، وبعد؟ ليس لديها طفل لتحيك له حذاءً ولا زوج لتحيك له سترة، وبوصولها إلى قناعة أنها أرسلت أكبر فردة جورب حاكتها بمفردها، ألقت النسيج جانبًا.

ماذا عليها أن تفعل لتُخصّص وقتًا لنفسها؟ كانت تشاهد في التلفاز النساء يخصّصن وقتًا لأنفسهن ويمارسن الرياضة، هَبْ أنها وجدت المال وسجّلَت في صالة رياضية، فلا يبدو أنها غالية كثيرًا تبعًا لوجود كل هذا العدد منها في صمدية وذهاب كل هؤلاء الناس إليها، إذا أخذت عمل مسح درجين أو ثلاثة أكثر... لا؛ لا تستطيع مِرجان الذهاب إلى صالة رياضية.

أولًا لأن لكل شيء قاعدة، فلا يمكن للفائلة مع البنطال الرياضي ماركة التفاحة المقضومة أن يتّسِع لأي أحد مثل النساء اللاتي يمارسن الرياضة في التلفاز، ما تشاهدونه أنتم في التلفاز أن ممارسة الرياضة ليست شيئًا غريبًا، ثمة بعض الأمور تبدو للجميع أمرًا عاديًا لكن...

لنفترض أنها ارتدت بدلة رياضية وليس استرتش، وذهبت إلى الصالة الرياضية لتركض على الدَّرَج وكأنها لا تنزل وتصعد بقدرٍ كافٍ بينما تمسح السلالم كل يوم؛ ماذا ستطلق على هذا حينئذٍ؟ هاه Step أم صعود وهبوط؟ أو ستنفق المال الذي تربحه من سلّمة على سلّمة أخرى؟ أي إلى هذا القدر من الحماقة... كما يقولون: وزّعتِ ما جَمَعتِه في سلطان أحمد في قاراجا أحمد... في الحقيقة إن جمعت كل المدربين الرياضيين الذي يظهرون في التلفاز فلا يمكنهم صعود ونزول الدَّرَج بقدر ما تفعل مِرجان وهي تعمل. هذا ما يطلقون عليه Step!

تئنّ عظام مِرجان في الشتاء فتربطها مع كونها في المياه تمسح السلالم حتى

المساء، لكن إن لم يكن لديكم وقت تخصّصونه للرياضة في برامج الصحة فاصعدوا وانزلوا السلم، ألا يقولون أخرِجوا المصعد من حياتكم؟! كما أن المياه صحية، أي أنه أينما نظرتم ستجدون عمل مِرجان رياضيًا، في الواقع لو بقي الأمر لها لوجب تخلّي الجميع عن المصعد؛ ولا سيّما المصعد، عدوُّ مِرجان الرئيسي في كسب قوتها.

كما رأت مِرجان في التلفاز أن الصالة الرياضية والفائلة الرياضية ماركة التفاحة المقضومة ليس شرطًا، يمكن لأي أحد أن يرتدي بدلة رياضية ويسير على ساحل أرناؤووط كوي وفي يده زجاجة مياه نصف لتر وإلى جانبه مدرب الحياة؟!

وحتى ساحل أرناؤووط كوي ليس شرطًا، فاليود هنا وهناك! أي على طريق الساحل المستغرق خمس دقائق إلى بيتها في صمدية، لكن... لا تملك مِرجان بدلة رياضية ولا مدرّب حياة، إن شاءت فسيكون كافيًا أن تشتري نصف لتر مياه، لكن... لا مجال لمِرجان بعد أن مسحت السلالم طوال اليوم أن تسير بوتيرة سريعة.

كانت تشاهد في التلفاز أيضًا النساء يستخرجن خرائطهنّ الجينية ويَقِسن مقدار دهونهن ويعلمن بمساعدة أخصائي التغذية الخبير نوعَ أجسادهن وأنسب الأنظمة الغذائية لهن، وهؤلاء النسوة اللاتي قرّرن اتباع التغذية الصحية باعتبارها نظام حياة؛ يضعن قوائم للمشتريات وينظّمن ثلاجاتهن وفقًا لعاداتهن المستقبلية، إنهن يتسلّين على أية حال.

إن لم يكن بإمكان مِرجان الذهاب لأخصائي تغذية فيمكنها اختيار أحد الأنظمة التي عرفتها من التلفاز وتطبيقه، هذا التسوق وطهي وجبات خفيفة لتدليل نفسها بالأكلات المسموح بها في قائمة الطعام الغذائي، والذهاب بين الحين والآخر إلى الصيدلية لوزن نفسها، وما إلى ذلك... كانت تسلّي نفسها على أية حال.

والله إنّ وَقْع «ريجيم دوكان» جيد على الأذن، أوه... لحمة بلا حدود حتى المساء!

حسنًا!

كانت مِرجان عازمة على إنجاز العمل رغم الصعوبات، اللحمة غالية، لكن ما دام أن الدجاج والبيض أيضًا من الأطعمة الغنية بالبروتين... جيد إذن، كم بيضة مسلوقة

يمكن أن يأكلها الإنسان في اليوم؟ كما أنه بإمكانك صُنع كريب من نخالة الشوفان لتحافظ على شبعك، ونخالة الشوفان تلك بثمن نصف كيلو من الدجاج.

يقول النظام الغذائي لا تغفل التنوع، فإذا أكلت يومًا دجاجًا فيمكنك أن تأكل اليوم التالي شريحة لحم، ثم اليوم الذي يليه تأكل سمكًا، يظن أخصائيو الأغذية أولئك أن الإنسان عندما يريد أن يخسر وزنًا أنه يريد خسارة نقوده بالتأكيد!

والله نظام قراطاي الغذائي لا يصرُّ على تناول اللحوم مثل دوكان، على سبيل المثال، فالدجاجة السمينة غير صحية، والبيضة حتى لا بُدَّ وأن تكون بيضة دجاجة تتجول حرَّةً.

ثم عين الجمل والبندق و... الله أعلم! كم تتكلف البضائع الأورجانيك الغالية وحتى تلك المباعة في سلة؟ والجبن سيكون جبن القرية.

إن كنت تريدِ نظامًا غذائيًا صحّيًا فيجب أن تبتعد عن الثلاثة البيض: الدقيق والملح والسكر. وفي هذه الحالة فالخبز؟! معاذ الله! لو كان فسيكون كل المخبوزات كذلك، أورجانيك! الأنظمة الغذائية التي تمنع كل رخيصٍ يُشبع؛ البطاطس، المكرونة؟! لا سمح الله! ما مقدار ما يكفي من الجبن إن لم يكن بين الخبز؟ كم ليرة تتكلَّف الوجبة السريعة إن لم تعبئها بالبطاطس؟ لا تتكلم الأنظمة الغذائية عن هذا. والأرز؟ فقط إن كان من مَزارِع طبيعية.

أساسًا مَن لا يرى قيمة الطبيعة في عالم البشر هذا هو الإنسان ذاته، على سبيل المثال، أولئك الأغنياء؛ ألا يُعرِضون بوجوههم عن مِرجان قائلين «القروية»، ثم ها هم يجدون دجاجة القرية فيقدّمونها قائلين «أمَّان! يالها من دجاجة أورجانيك!»، أي أنهم لا يعطون مِرجان قيمة حيوان يأكل خراءه حتى...

كان بإمكانها أن تَزِن الأمور من جديد. ما دام أنها لن تستبدل المكرونة حتى بالبرغل... إذن فالخطوة الأولى غير مكتملة... في حين كانت الدجاجات تتجوَّل حُرَّةً، ألن تستطع مِرجان خطو خطوتها الأولى؟

صيدلية الدواء هي الباب الذي تطرقه مِرجان عوضًا عن الطبيب، لم يكن لها تأمين

فإن ذهبت للمستشفى اليوم وألقت السلام فأمامها شهر على الأقل لردّ سلامها؛ لكن الصيدلي فبمثابة الخدمة العاجلة، تذهب إليه راكضة وتقول «هذا يؤلمني»، و«عندي كذا وكذا»، فيضع الرجل تشخيصه ويخرج الدواء اللازم ويعطيه لها.

دخلت مِرجان الصيدلية وكانت هناك خالة تأتي لتقيس ضغطها على مدار الساعة، وفي النهاية عندما تسأم من الذهاب والمجيء إلى الصيدلية من الصباح حتى المساء تجلس أخيرًا على الكرسي أمام الخزينة، وإن كان الصيدلي نصف طبيب فالخالة مريضة الضغط نصف صيدلية؛ ولذا كانت تقترح في تلك الأثناء على الرَّجُل الذي يطلب علاجًا لمعدته الكربونات، فكان الرجل يأخذ تالجيد(2) ويخرج.

قالت مِرجان للصيدلي: «أيمكن أن تزِنّي؟»، فيرد: «بالطبع!». تترك مِرجان حقيبتها على المنضدة وتصعد على الميزان، يقف المؤشر عند 50، تقول الخالة مريضة الضغط:

- كم كيلو؟

- 50.

- يحسب هذا الميزان الوزن زيادة 2 كيلو، أنتِ 48...

وبينما تنزل مِرجان من على الميزان؛ تُردِف الخالة:

- كُلي المسلوق؛ لكن غمِّسي بالخبز... أصبحتِ جلدًا على عظم يا فتاة! المرأة التي لا تملأ حضن زوجها يذهب عنها.

شكرت مِرجان الصيدلي وخرجت.

وتفحصت نفسها في المرآة وهي ذاهبة، كانت مثل العظم. إيه! ضعي لقمتين في فمك صباحًا واذهبي للشغل ثم اصعدي وانزلي السلالم حتى المساء، لا يمكن أن تكتسبي وزنًا يا مِرجان... وهكذا فإن المرأة التي لا تملأ حضن زوجها؟ زوجها... سيذهب، لو كان زوجها زوجًا لأجلسها في البيت وأراحها، ولكانت مِرجان قد اكتسبت وزنًا وملأت حضنه، فمثلًا: لو كان لدى مِرجان وقتًا للجلوس في البيت

وصنع المعجّنات؛ أمّا كانت لتسمن من أكل البوريك والبوغاشا، وأما كانت أساورها لن تشخشخ بينما تفرد العجينة بالشوبك جراء انحشارها في معصميها؟! أي أن زوجها سيشتري لها أساور أيضًا حين يبدأ بالعمل... ثم يمكنها أن تبدأ النظام الغذائي بعدها إن شاءت.

وبغرق خطة نظامها الغذائي في الماء، شدَّ باب تخصيصها وقتًا لنفسها وذهبت متعتها.

كانت مِرجان بعيدة عن ثلاثة بيض: الدقيق والملح والرجال!

كما كانت مِرجان تشاهد في التلفاز أن وجبة الإفطار هي أهم وجبة في اليوم؛ فوجبة الإفطار كالملك، ووجبة الغذاء كالعامل، أما وجبة العشاء كالعبد، من حيث الأهمية، وكانت إفطارات الآحاد تصحبها متعة كبيرة؛ فهي هدية المرأة العاملة لنفسها.

حيث إنها يوم الأحد بإمكانها أن تعدَّ مائدة فطور مثالية، وتقرأ الجريدة بينما ترتشف قهوتها مثل النساء اللواتي في المسلسلات؛ وبهذا تُخصّص وقتًا جميلًا لنفسها.

أما صباحات مِرجان فتعالوا وانظروا؛ كانت تذهب لمسح السلالم، أي إنها لم يكن لديها وقت للجلوس على مائدة الفطور. حسنًا، وأي يوم إذن تُخصّصه لوجبة الغداء؟ فبالرغم من جلوس النساء اللاتي في المسلسلات على مائدة الفطور بكامل مكياجهن وشعورهن مسترسلة؛ هُنَّ بالتأكيد لا يستيقظن فجرًا، فمكواة الشعر تلك تأخذ على الأقل ساعة.

اشترت مِرجان قبل يومٍ طماطم شيري ونعناعًا وريحانًا من سوق السبت، فلا توجد وجبة برانش(3) دون طبق ملوّن بالطماطم والخضرة، ولتشتري الخبز الطازج والجريدة يوم الأحد بعد مسح السلالم... ولأن البائع الذي يبيع كل أنواع الجرائد، والفرن الذي يبيع أفضل خبز ساخن يوجدان أمام جامع سمبل أفندي... وبما أنها ذهبت إلى هناك...

كانت الشجرتان المتعانقتان تظهران من خارج الجامع، دخلت الجامع مهرولة: **أيتها السلطانتان، أنتما فقط مَن تفهمانني... كما أنكما تعانقان بعضكما البعض حتى في وفاتكما كي لا تنهارا، أنا أيضًا في حاجة لعناق...**

ولجت مِرجان بيتها وفي يدها الجريدة والخبز، كان خبزًا أبيض، أعدّت إفطارًا من بيـ... -عذرًا- أومليت بالزعتر، والزيتون المخلي والمربّى والخضرة، وبالطبع من ضمنها الطماطم الشيري. لم تكن مِرجان ستتناول طعامها ذلك اليوم من على الصينية؛ بل إنها أعدّت مائدة لوجبة البرانش. تراجَعَت خطوة وتأمّلَت بفخر مائدة الفطو... -عذرًا- البرانش.

ولم تفتح التلفاز كذلك، فهي ستنصت إلى هدوء البيت الساكن، أوه يا! العالم هكذا! هل تتناول النسوة اللاتي في التلفاز فقط طعامهن من الصينية أمام التلفاز مثل الدجاجات؟! جميعهن يعاملن أنفسهن باحترام ويضيّفن أنفسهن حتى لو لم يكن هناك غيرهن بالبيت، لن تتناول مِرجان أكلها في بيتها من أجل العيش بعد الآن، ستعدّ طعامها على رأس المائدة. ولو أن النساء اللاتي في التلفاز تطلُّ موائدهن على منظر البحر دائمًا إلا أنهن أيضًا يتناولن طعامهن مديراتٍ ظهورهنّ لمنظر البحر. بالطبع، فعين الإنسان تشبع من شيء واحد، إن سارت مِرجان لخمس دقائق ستصبح عند البحر، فهل ستذهب للشاطئ بسلّة الطماطم الشيري وتتناول طعامها متأمّلةً البحر؟! هي أيضًا مثل اللاتي في التلفاز، لن تلتفت للمشهد، وستهتم بنفسها، وربما تطالع الجريدة قليلًا وتشتّت ذهنها.

ارتشفت رشفة من قهوتها... وبدأت من جهة تتصبّر بأشياء من على المائدة ومن جهة أخرى بدأت تقليب الجريدة. جرائد يوم الأحد ليس لها مثيل؛ يأتي معها ملحقات عديدة تكفي لمسح النوافذ لمدة شهر تقريبًا، فتحت مِرجان ملحق المجلة...

في زاوية الصفحة موضة الشارع، ومن جانب صورة بالطول لنساء أُخرج منهنّ سهم لبطاقاتٍ بالسعر: مكتوب تيشرت -لا أدري ماركته- بهذا وحذاء ماركة كذا بهذا الثمن وحقيبة ذلك المتجر تكون على الأقل بكذا. عجبًا هل يا تُرى يمكن لمصوّرين تلك الصور حفظ كل الماركات وكل الموديلات والأسعار؟ أم أن هؤلاء النسوة يتذكرن

من أين اشترين كل ما يرتدينه وسعره، ويُملونه لمصوّريهن بعد اتخاذهن وضعية التصوير؟! أيًا ما يكن! فالنساء يعرفن المشاركة في الحياة اليومية بتصاميم مريحة في صفحة موضة الشارع؛ وهذا ما كانت تطالعه مِرجان.

في صفحة من المجلة بداية مسلسل حب جديد، الثنائي اللذان أنكرا علاقتهما ظَهرًا في متجر بيع المجوهرات، والزوجان المشهوران المطلّقان حديثًا التقيا في عيد ميلاد طفلهما، وعلاقة حب عارضة الأزياء ولاعب الكرة المستمرة بين خصام ومصالحة، وخروجهما من ملهى ليلي وركوبها العربة واختفاؤهما في الظلام...

أحد ملحقات الجريدة كان يختصُّ بالعناية بالرضيع، وكان على غلافة صورة رضيع -حماه الله لأبويه- مستغرقًا في النوم، وكُتب بحروف حمراء سميكة: **ملف: تهويدة الأمهات: السهر كل ليلة**، وأسفلها بلون وردي وحروف سميكة عنوان موضوع آخر: **وأنتم تعدُّون الأيام لوصول طفلكم.**

في الصفحة الأولى للملحق أمٌّ تبتسم فاغرة فاها وممسكة بطنها المنتفخة، والعنوان: **وأنت تنتظرين طفلًا.** ارتشفت مِرجان رشفة من قهوتها ثم استأنفت القراءة: **نعلم أنك متحمّسة للغاية من أجل الطفل الذي ستلدينه، فبداخلك روح تنمو.** تركت مِرجان الملحق على المنضدة، لا حاجة لها بقراءة هذا، كانت ستتناول فطور الأحد وتخصص وقتًا لنفسها، إلى جانب أنها لن تأكل لسدّ رمقها فحسب، وإنما ستعطي الطعام حقَّه، وستسمن لتنجو من منظرها النحيف هذا. مسحت شريحة خبز بالزبدة والمربى، وهكذا لن يتسنّى لملحقات الجريدة -التي كأنما أُعِدّت نكايةً بها- إفساد مزاجها.

في الحقيقة ظهر ملحق الطفل هذا أمامها تمامًا بعدما تمنّت اليوم من السلطانتين طفلًا، فلربما تكون هذه إشارة من الله؟!

ارتشفت رشفة من قهوتها، بردت. فتحت صفحة بشكل عشوائي من ملحق الرضيع، كانت تحكي عن النساء اللاتي لا يستطعن النوم من أطفالهن. واهٍ واهٍ! الحمقاوات! ليكن لمِرجان طفلٌ، ولْيقُضَّ مضجعها! هكذا ستقضي معه وقتًا أكثر، وتُخمد شوقها لابنٍ كلّ تلك الأعوام. أغلقت الملحق. لم يكن داخل مِرجان إلا ميت ينمو.

أخذت فنجان القهوة المزين برسمة برج إيفل وذهبت للمطبخ فسكبت القهوة الباردة في الحوض، ثم فتحت الموقد وغَلَت المياه في بزّاد الشاي. لو كان زوجها في البيت لتركت بزّاد الشاي يغلي على الدوام، ليُمكنه أن يجد ماءً من أجل القهوة والشاي دائمًا في البيت. حسنًا، إنهم عائلة مكوّنة من أم وأب، وطفل لم يرزقهما الله به، ورغم أن العائلة تعني -على سبيل المثال- بزّاد شاي يغلي على الدوام فوق الموقد في البيت؛ إلا أنه لا يمكن الإسراف في الغاز بهذا القدر لأنها تحتسي فنجان قهوة مَرّة على رأس الساعة.

عادت مِرجان إلى الصالون وفي يدها القهوة الساخنة. كان ملحق الرضيع على المنضدة، فتحت التلفاز، لم يكن السكون في البيت في الأساس سكونًا مريحًا، كانت ضوضاء الإنشاءات في الحي تملأ كل البيت. جلست مِرجان على المائدة وفي يدها الريموت، كان على التلفاز إعلان لحفاضات الأطفال، يغيرون للطفل وهو نظيف. يستخدمون الأطفال في الإعلان. غيّرَت القناة. تظهر ممثلة -أنجبت حديثًا- مع طفلها في إعلان طعام للأطفال. وكأنهم لا يعلمون أن مِرجان تراها عادةً -أي في المسلسلات- لا تظهر أمام الكاميرات دون كَيّ وتوضيب شعرها... أما الآن تُجشّئ طفلها، جامِعةً شعرها من أعلى مثل الهدهد؛ فقط لكي تدخل في أجواء الأمومة التي تُبعثر الشَّعر.

فتحت مِرجان ملحق الرضيع ثانية. **لِمَ لا ينام الرُّضّع؟ كيف تتعامل الأمهات مع قِلّة النوم؟ سألنا الأمهات والخبراء عن هذا؟**

أي... ربما يكون من الخير أن لم يمنحها الله طفلًا، أماااان! بالإضافة إلى أن زوجها ذهب، ماذا كانت ستفعل مِرجان مع الطفل وحدها؟ بَيد أنه لو كان لهما طفل... لم يقولوا عبثًا أن الطفل يربط الزوج بالبيت، ربما ما كان زوجها سيذهب. كان سيذهب. هل يصلح الرجل الذي لم يكن زوجًا لامرأة صالحة مثل مِرجان -من أفضل النساء؛ تطعمه وتسقيه وتُلبسه- أن يكون أبًا لطفلٍ لن يمنحه شيئًا إلا البكاء حتى المساء. همم... ماذا ينتظر من ابن ذلك الأب في النهاية؟ العِرق دسّاس، فحتى العنزة التي تتسلّق الشجر تنجب ولدًا يتجوّل بين فروعها، وحيدر كذلك أيضًا سيترك البيت ما أن

يبلغ رشده، وسيعتري مِرجان حينها حزنٌ على فقده أسوأ من حزنها الآن لأنه ليس لديها ابن، من الخير أنه ليس لديها ابن؛ هكذا يقول التلفاز والجرائد أيضًا: الأطفال إمَّا يتغوَّطون ويطلقون ريحًا، أو لا يبتلعون طعامهم ويقشطون على أمهاتهم.

أمَّا عن راحة مِرجان؟! فليست عند أحد، ألقت في فمها حبة طماطم شيري، علقت بذرتها في حلقها، فسعلت، تجرَّعَت شربة ماء. أيُمكِن لامرأة لديها طفل صُنع برانش أحد هادئ كهذا؟! أراد الله الخير لمِرجان فلم يمنحها طفلًا.

ارتشفت رشفة من قهوتها باستمتاع. يبدو أن الطبيبة الخبيرة التي تقدّم رؤيتها حول مشاكل النوم عند الرُّضَّع والأمهات- متزوّجة؛ بحسب لقبها المزدوج، وربما لديها أطفال أيضًا، قامت بالاختصاص فيما عانته مع أطفالها، أي أنها تقدّم النصائح من واقع تجربتها.

حسنًا، ماذا كانت أسباب عدم نوم الرضع ومعاناة الأمهات؟

عدم توافُق الوالدين في تعويد الطفل على النوم: صحيح! لنفترض أن مِرجان أنجبت، وأن زوجها هو الآخر لم يترك البيت، مَن سيصرف على ذلك البيت؟ هل سيشرع الرجل، الذي لم يعمل أبدًا -حتى- ليكون عونًا لمِرجان المتعبة من الحمل- في العمل بعد ولادة الطفل؟! يقولون إن الطفل يأتي برزقه، أحقًّا؟! لا بُدَّ أنه سيتغوَّط ذهبًا؟! أوه... أوه ما شاء الله! حين تبدأ مِرجان مسح السلالم قبل أن يجفَّ الحبل السري للجنين... مَن سيعتني بالطفل؟ مَن الموجود في البيت؟ زوجها. ها هي الجريدة حتى تقول إن الرجل غير منضبط، ولا يمكنه تعويد الطفل على النوم. سيظل يدخِّن الحشيش ويحكي للطفل ثُرّهات... يتشاجر الجميع حول مَن سينطق به الطفل أوَّلًا: ماما أم بابا؟ يا له من رائع! أما مِرجان وزوجها فأول كلمة لطفلهما ستكون إمَّا ملاءة أو سيجارة...

حال الوسط المحيط بالرضيع: جيد أنه لم يكن لمِرجان ولدًا. لا يُرجى خير من نوم ولا يقظة طفل ينمو في بيتٍ تحت الدخان، يحدق ببله، وإن لم يصبح مجنونًا فسيصير طائشًا. خير أنه ليس لدى مِرجان طفل! وماذا عن تدخين الحشيش... فو الله مهما نبّهَت على زوجها سيواصل تدخين الحشيش بجوار الطفل... أتبلغ عنه؟! لا

يمكن! يقولون إن الطفل يعزّز استقرار العائلة؛ أما طفل مِرجان فما أن يولد سيودي باستقرار بيتها. خير أنها لم تلده!

القلق داخل العائلة: ازدردت مِرجان ريقها... واها! أهم ما يتوقف عليه عدم نوم الطفل: 1- العائلة 2- الطفل...

ارتجاع المريء: شعرت مِرجان أنها أَمَةُ الله المحظوظة ربما لأول مرة في حياتها. حمدًا لك يا الله أنْ حَرَمتَها من الأطفال. دائمًا ما يرددون: أبناء عاقُّون، يخرجون من البيضة ولا يعجبهم قشرتها! أي أن الطفل لن يلتفت إلى معيشتهم في البدروم، ولا عدم وجود تأمين لهم، وعدم معرفة مِرجان هيئة صحية أخرى غير الصيدلية؛ بل إنها بخلاف الأوقات التي تعالج الأم ابنها لأنه ابنها؛ ستعتني بأمراضه التي لا تعرف اسمها، وستطوف به، ليس على المستوصفات أو ما شابه، بل على المستشفيات الخاصة لأنه أصيب بارتجاع مريء!

كما أنه عندما يكبر إذا درس في فصل أحد أبناء مُلّاك الشقق التي تمسحها مِرجان سيخجل من أنها والدته، وربما لن يبلغها حتى باجتماعات أولياء الأمور؛ رغم كل ما عانته مِرجان لأجله... ظلت يداها معلّقتين في الهواء تدعو بحرقة ليمنحها الله طفل. ألم تستلم أعمال التنظيف في عمارة أخرى قائلة إننا منذ ولادته نسكن البدروم لم يرَ الطفل الشمس ولم يشبع من الفيتامينات والبروتينات؟! كم سلّمة يتكلف البروتين مسحها؟ أيعرف حيدر؟! ألم يخطر كل هذا على ذهن ابنها قطُّ... كلبٌ عاق!

كلما كبر طفلكم سيزداد تعلّقه بحكاية قصة، وحتى لو أنكم سئمتم فلن يملّ ابنكم من سماع نفس القصة كل يوم... حسنًا، الطفل مسؤولية، لكن ماذا بشأن مَن حملت دون رغبتها. أدركت مِرجان ذلك مؤخرًا: أنه لا يمكن التخلص من الطفل... فعندما يقول الطبيب لا يمكن إجهاض هذا الطفل بعد أن يتّضح أنك حامل في خمسة أشهر؛ تصبح مِرجان مضطرة لإنجاب الطفل، ومُجبَرة على شد الستار وإنهاء أيام السعادة التي كانت تُخصّص فيها وقتها لنفسها. وأما بشأن القصة فلا يمكن الاستسهال وحكاية نفس القصة كل يوم. ينتفخ رأس الطفل -لا سمح الله-. فإذا كنت ستحكين يومًا قصة الطفل الأقرع ستحكين في اليوم التالي عن عقلة الأصبع يا مِرجان!

ثم هناك القصة التي روتها أمها لأخيها؛ هاه! ياريمجا... ياريمجا طفل صغير، ألم تحكِ مِرجان سابقًا عن عقلة الأصبع وكذا ياريمجا طفل صغير بقدره؛ لكن لا تلتفت لمظهره الصغير! فقد كان لدى ياريمجا قدرة خارقة؛ كان قضيبه طويلًا للغاية على غير الطبيعي، وكان يمكنه رشُّ بوله بعيدًا. مضى الوقت وأدرك الناس امتلاكه لهذه القدرة، وقالوا ما دام هكذا فلننادِه عند اندلاع حريق، وإذا به يطفئ النار ببولَةٍ واحدة، وبعد ذلك اليوم صاروا ينادون ياريمجا لو اندلع اللهب في مكان ما قبل الإطفائية، أمَّا ياريمجا فكان إمَّا يركض إلى الحي وإمَّا يمدُّ بوله إلى مكان الحريق في تلك اللحظة فيطفئه... ستشرع مِرجان في حكاية نفس القصة كل يوم، وستقوم فيها ببعض التعديلات طبعًا كي لا يملَّ الطفل، تارة أنه سيصعب على ياريمجا العثور على سروال بسبب قضيبه الطويل، وسيسعى كل تجار السوق لإيجاد قماش يكفي لسرواله، وتارة أنه ستُؤسَّس هيئة لقياس مدى انعكاس صوت تبوُّله القوي؛ فسيتبول ياريمجا ذات يوم فوق هاوية عميقة، وذات يوم فوق البحر، وفي يوم آخر فوق وادٍ جاف، وسيعاينون انعكاس صوت تبوُّله.

سيتهاوى ابن مِرجان مرهقًا من كثرة قهقهته ويغلبه النعاس، وبينما ينام ستسقط يده على بطن أمه، ولن تستطيع مِرجان تحريك ولا شَعرة من شعراتها كي لا يستيقظ ابنها. طفل... تفوح منه رائحة عطرة. حسنًا، ربما لم تكن تريد في البداية أن يكون لها ولد، لكن ربما «لم تنتهِ مغامرته معها بعدُ»، سيجعلها الطفل تحبه بعد ذلك.

إن كنتِ من المحظوظات وكان زوجك في الأيام الأولى ينهض كلما يبكي الطفل ويبقى معكم... فبعد مدة لن ينهض مطلقًا، وسيتناهى إليكِ صوت أنفاسه العميقة من حجرة جانبية بينما أنت تحاولين جاهدة أن تُبقي عينيك مفتوحتين. لا تتوقَّع مِرجان أساسًا من الأب شيئًا كثيرًا؛ فزوجها بطبيعة الحال طفل صامت سيكبر مع ابنه. أما فيما يتعلق بنومه عندما تكون مستيقظة أو غيره فمِرجان في الأصل لا تريده أن يحتضن الطفل ولا ما شابه بعقليته هذه، يقع منه أو يسقط -لا قدَّر الله-... أمَّان أمَّان! لينم. واها على الكلام! بينما تكون مِرجان مستيقظة سيتناهى إليها صوت أنفاسه! ما هو تعريفكم للزوج؟ نَفَس في البيت... نَفَس، ليس إلَّا.

ليس سهلًا أن تحاولي النوم بعدما ينام رضيعك إن كان ما زال هناك شغل في البيت وطعام سيُطبَخ، وحتى لو افترضنا أنك نحّيتِ كل هذا جانبًا وقرّرتِ النوم؛ حينئذٍ لن يصمت هاتفك، وسيُطرَق بابُكِ مرّات عديدة. أي إنه بعد إنجاب الطفل ستتسع الدائرة، بالطبع، ولِمَ لا تتّسع؟! ويكون لك مَن يبحثون عنك ويسألون عن حالك حتى...

هل من أحد الآن يسأل عن حالها من الجيران؟! لكن عندما يكبر طفلها ويلعب أطفالهم أمام بابها سيسألون عن حالها مُجبَرين. ربما سيجيد حيدر لعب الكرة، وسيقول الأطفال لأمهاتهم: ليأخذنا حيدر للّعِب معه، وستطلب الأمهات ذلك من مِرجان؛ كما أن مِرجان لا يمكنها أن تطلق طفلها في الشارع مثلهنّ وتغلق بابها وتستلقي خلفه؛ بل إنها ستضع وسادة أمام باب العمارة وتجلس عليها لتقول لابنها إن دخلت سيارة أو ما شابه إلى الشارع بينما هو يلعب «تنحَّ جانبًا يا ولدي!»؛ ولأنها لن تحمي ابنها فقط، بل الأطفال الآخرين أيضًا؛ سيشعر الجيران بالامتنان لها، ناهيك عن السيدات التي ستتعرف عليهن في منتزه الألعاب بينما تنتظر حيدر على طرف الزحلوقة كي تمسك به لئلّا يسقط على الأرض بعد تزحلقه... ستكون ثمة أمور كثيرة تتحدث فيها معهن... وبعد أن تُحرك ضمائرهن لن يخجلن من أم حيدر أبدًا، وسيدعينها بالطبع إلى اجتماعات أولياء الأمور، وإن أرادت مِرجان فيمكنها حتى الانضمام إلى اتحاد أولياء الأمور. نعم؟! ليست هناك قاعدة أن النساء اللاتي يمكنهن مدُّ السَّبَت للبقّال هُنّ فقط مَن يحقُّ لهنّ الانضمام للاتحاد...

نعم، لن يعود بإمكانك تخصيص وقت لنفسك. العناية الشخصية... الكوافير ذكرى بعيدة... ستعتادين... ليكُن، ماذا كان بإمكاننا أن نفعل؟ كل الأمهات اللائي يُحضرن أبناءهن إلى المنتزه والمشتركات في اتحاد أولياء الأمور يواجهن نفس المشكلة، لن تشعر مِرجان بنفسها وحيدة بعد الآن. **ربما أيضًا ستنسين كلّ هذه المصاعب وتستعدّين لتكوني أمًّا للمرة الثانية.** قلبت مِرجان الصفحة. آه... آه... الجميع لديهن طفل ثانٍ.

فتحت مِرجان المصباح، ما زال الوقت نهارًا، يحيط الظلام بالبيت بعد الظهيرة

بسبب نوافذ البدروم الضيقة.

في الصفحة الجديدة التي فتحتها مِرجان كانت افتتاحية لموضوعٍ **ما ينتظر الحوامل**، وتحت صورة لامرأة حامل: **لا تفكري في شيء آخر غير ابنك. هل هو سليم؟ كيف ستكون الولادة؟ استبدلي المشهيات في قائمة تسوُّقك بالأغذية الصحية.** ألقت مِرجان في فمها بعود بقدونس. **ستصبح أفضل مجلاتك التي تحوي تشكيلة الحوامل، وستستبدلين حقائب كلوتش خاصتك بالحقائب التي تتَّسع للكثير من الاحتياجات؛ مثل: حفَّاضة الطفل، وببرونته، ولهَّايته، وستحدِّدين مواعيد اجتماعات عملك وفقًا لمواعيد إرضاع طفلك، وسيتغير كل شيء في حياتك، لدرجة أنك...** استوعبت مِرجان إذن؛ كم هو صعب عمل الحوامل هذا! ولو كانت تعرف ما هي كلوتش هذه لاستوعَبَت الأمر أكثر، لكن... **لكن ثانية! هل يمكن ألَّا تتغير حياة البعض لهذه الدرجة؟!** يستحق مَن تطلبون منَّا تعاملهم بحرص معكن اهتمامًا خاصًا.

زوجك، الذي ينتظر بمشاعر مختلطة، متهيِّئًا للتعامل مع كل تقلُّباتك خلال هذه الفترة، أيمكنه القيام بكافة مسؤولياته المادية والمعنوية؟ أيمكنه النهوض من الأريكة والخروج للبحث عن عمل؟ **الأسئلة التي تراود عقله تشكِّل امرأة مختلفة أمامه.** إن ذهب ليذهب، ذهب...

ألا يمكن أن يكون قد غار قليلًا؟! ادعمي زوجك لئلَّا يشعر بأنه انحدر إلى المرتبة الثانية عندك! ولو أن زوج مِرجان توحَّم مكانها لصنعت الحلوى له دون تكاسُل ودون أن تقول: «لا تُتعِبني... ألا ترى أن بطني وصلت لأنفي»... ما كانت ستقول له: «اذهب...».

صديقتك المقرَّبة؛ إن كانت عزباء فستتعجَّب، صديقتها التي كانت ترافقها في الرحلات حتى وقت قريب وتجدها بجانبها كلما احتاجتها أصبح لها حياة جديدة. يقولون دائمًا: ثمة جنة ونار في هذه الدنيا. صحيح، ها هي الجريدة تصف الجنة: إنسانة لها زوج، ولها ابن، ولها صديقة حميمة، وستخرج في رحلة أيضًا...

الطريقة الوحيدة لتخطِّي هذه المسائل أن تكوني طبيعية!

مِرجان طبيعية، بل هي حتى أورجانيك، ولكن ليس لديها صديقة، ولا زوج، ولا طفل حتى؛ والشيء الوحيد الذي تمتلكه من ضمن هذه الأشياء:

مديرك: سينشغل بإعداد خطة «أ» و«ب» وحتى «ج» للتعامل مع الاحتمال الكبير لاستئذانك للمغادرة أو حتى ترك العمل.

لا يجهز أصحاب البيوت خطة «أ» أو «ب» أو «ج»؛ إن رأوا تقصيرًا من مِرجان في عملها، هل سيحضرونها لتمسح السلالم؟!

المشكلات التي تواجهينها في عملك: اتّساخ السلالم؛ والله سيأتي ضيوفهم ويُفضَحون. ربما يُقلق هذا مديرك. متى ستأخذين إجازة الولادة؟ إجازة الولادة؟! هههههه... لا يمكن أن تستخرج مِرجان إذنًا أو غيره. ستخرج إلى السلالم قبل مرور فترة نِفاسها. متى تستخدمين إجازة الرضاعة؟ ستضع الحليب في الثلاجة. وسيعود زوجها إلى البيت؛ أصبح لديهما ابن، سيترك الرجل تدخين الحشيش، وسيمكنها أن .تثق فيه وتأتمنه على ابنها أيضًا... **شاركي إجابات هذه الأسئلة مع مديرك، ويمكن تحقيق سير العمل بسلاسة لأجل لطرفين.** عذرًا، هل يمكن أن تذهب مِرجان برضيعها لمسح السلالم؟! والله لن تحتملها ضمائرهم. كيف يمكنها مسح السلالم بالطفل على ظهرها؟ لا يمكن أن تبقى العمارة متّسِخة كل هذا الوقت. حتى إنهم سيستبدلونها بامرأة تمسح السلالم في العمارات المقابلة...

أغلق طفل مِرجان باب رزقها. تطلّعت إلى النوافذ. كانت شديدة الاتّساخ.

ماذا كانت ستفعل مِرجان لتخصيص وقت لنفسها؟ هل كانت ستصفّف شعرها بعد أن تمسح ثلاث عمارات -وفق حساب نساء العمارة- وتذهب إلى البارات التي تذهب إليها النساء اللائي في التلفاز؟ حسنًا... يمكنها أن تجرب. ليس إلى البار بالطبع يا عزيزي. ماذا فعلتم بمِرجان؟! إلى ميدان صمدية...

مسحت ذلك اليوم سلالم العمارة التي عليها مسحها ثم عادت إلى البيت خائرة القوى. نعم، كانت من عادتها عند العودة من العمل احتساء قهوة التعب، ولا بُدَّ أن تكون بـ«وِش» كثيف. دائمًا ما تفعل النسوة اللاتي في التلفاز هذا. هل ستعرف أفضلَ

منهن؟! لتجلس على المقعد هكذا...

هل كان هناك شيء آخر تفعله مِرجان غير الجلوس مقابل التلفاز، فقد كان التلفاز مدرِّبَ حياتها ومستشار طرازها وربَّ عائلتها.

اغتسلت وأصبحت في غاية النظافة. ليذهب زوجها إن شاء. ألم تكن مِرجان امرأة عاملة معتمدة على نفسها، تحتسي قهوة التعب عند عودتها من العمل وترتدي ثيابها وتخصِّص وقتًا لنفسها.

ارتدت ثيابها... يا تُرى ماذا كانت مِرجان سترتدي في الوقت الذي خصَّصَته لنفسها؟ ماذا تقول النساء اللاتي في التلفاز؟ **لا أهتمُّ كثيرًا بالموضة. لا بُدَّ من وجود تصاميم فريدة في دولابي، يعجبني تكوين طرازي الخاص بهذه القطع، المهم لديَّ متابعة تِرند اليوم وخلق طرازي الخاص...** المهم لدى مِرجان هو... أن تجد سروالًا تستر به مؤخِّرتها... وأنتم أيضًا الآن...

بَيْدَ أنه ما كان يجب أن يصير قدر مِرجان هكذا. ماذا كان ينقصها عن النساء التي تقابلهن في الحياة لتقطن في الطابق الثالث أو الرابع أو الخامس حتى، وتمدَّ السَّبَت إلى البقال مرتديةً ثيابها اليومية المريحة؟

حسنًا...

أخذت من الشماعة طقم التنورة والبلوزة الحمراء فارتدته وتطلَّعَت إلى نفسها في المرآة... هل تبدو وكأنها ذاهبة إلى عرس؟ نعم بالطبع؛ طقم التنورة والبلوزة الحمراء، كانت ترتديه أمام الناس متى كانت ذاهبة للعرس، لأنه لم يكن لديها غير طقم واحد للخروج أمام الناس.

أيًا ما يكن... ماذا قالوا: **أنا أبرز مفاتني الأنثوية بحمرة الثياب.**

آه... آه... ماذا كان ينقص مِرجان عن النساء اللاتي لديهن ثياب سوداء رسمية في دواليبهن يرتدينها على الفور إن تمَّت دعوتهن لحضور شيء فجأة... لا... لا؛ لن تعكِّر مِرجان مزاجها، وستطأ -كامرأة عاملة وحيدة- أولى خطواتها في الحياة الاجتماعية.

وضعت مكياجًا خفيفًا حتى، لو رآها زوجها الآن لقال: أي امرأة ضيعت يا هذا؟! أتذهب إن شئت ولا تعود إلا إن شئت. ها هي المرأة قد خصصت وقتًا لنفسها. أوه! فليكن.

حين كانت مِرجان تهبط الدَّرَج الواصل لساحة صمدية... لم يكن عبورها يشبه عبورها حين تمر به ذاهبة للتنظيف. لم يكن من الممكن أن تهبط مِرجان أساسًا من الدَّرَج إلى ساحة صمدية إذا لم تكن ترتدي ثيابًا نظيفة للغاية، وإن كان ولا بُدَّ من مرورها من الساحة بهيئتها فسترتدي فوقها تيشيرت يحمل علامة ماركة، وإن لم يكن أصليًا، وتحته تنورة مطبوعة، وإن كانت هناك طرحة تربطها على رقبتها وهي تمسح السلالم وتدخل إلى ساحة صمدية عبر الطرق الجانبية. فالطرق الجانبية بالنسبة لمِرجان بمثابة مصاعد النقل الموضوعة لبيوت الأغنياء كي يقوم الخَدَم بوظيفتهم دون التجول معهم في مكان مشترك.

وبينما كانت تهبط السلالم الواصلة إلى ساحة صمدية لم تكن مِرجان هانِّييم التي تمسح دَرَج العمارة. كانت رؤية الدرجات السفلية وليست العلوية بينما تهبط الدَّرَج بالنسبة لها بمثابة قفز درجة في الحياة.

بينما كانت تهبط السلالم الواصلة إلى ساحة صمدية كانت امرأة مدنية عاملة خرجت للتخلص من تعب يوم عمل كثيف؛ تحيط بها مع ردائها اليومي المريح نسائم البهجة.

خلعت مِرجان -مِرجان هانِّييم- مثلَ بالطو، فعلَّقته على مقدمة السلالم الهابطة للساحة ونزلتها.

اصطفَّت الحانات والمطاعم والبارات في المباني ذات المشربيات بدءًا من نهاية الدرج، عجبًا، في أي «مكان» ستجلس؟! كانت تعيش في صمدية منذ سنوات، لكنها لم تشرب حتى شاي في قهوة بولنت، ناهيك عن احتساء شراب في مكان ما. كان من الأفضل الجلوس في حانة. كان اسمها حانة؛ لكن عندما يتعلق الأمر بساحة صمدية يختلف الوضع، لأن الحانات التي هنا سياحية. كما أنه... ماذا يقولون؟ هاه... «لها روَّادها». أي إن الجلوس في الحانات القابعة هنا يتطلب ثقافة معيَّنة. لا يمكن

لأحد أن يتعامل بسوء مع امرأة جالسة في حانة في صمدية. بالطبع يا أعزائي! يترك أثرياء أوروبا -وما شابه- بلدانهم ويأتون إلى هذه الحانات... كانت تقبع إحداها وسط الساحة بجانب تمثال يونس. تَزين مبنى حانة صاري جول من الخارج بتلافيف ورود اللبلاب الصفراء وحانة كولالي مقابلها بورود اللبلاب أيضًا الحمراء... أما الحانات الآخرى فبعضها مدهون بالأزرق، وبعضها معلّق عليه دفّات سفن من كل النواحي. يا للجمال! تطلّعت إلى الجالسين على الطاولات أمام أبواب الحانات؛ ينتقون من صينية المقبلات التي يجلبها النادل. مَن يجلس هنا الآن يطلب إعداد المائدة له.

إن مِرجان هذه تعمل ويمكنها تخصيص وقت لنفسها؛ لكن لا يمكنها إلا احتساء كأس من البيرة أو كأسين على أقصى حد؛ وإن سألتم عن السبب فلأن نقودها تكفي بالكاد لهذا الحد. إيه! لم يقولوا عبثًا إن الوقت نقد...

كانت تظهر الأماكن المكتوب على يافطتها «مَشاوي» أكثر شعبية لكن... لأنه لا يمكن الذهاب إلى المشاوي دون تناول اللحوم، كما أن أغلب المشترين منها كانوا رجالًا ولا يمكن لمِرجان أن تجلس بينهم.

Telegram:@mbooks90

أما البارات... فاجلس واطلب بيرة. اسم على مسمّى. لا صينية مقبّلات ولا تناول لحم...

نعم.

كانت هناك دجاجتان تدوران بحرية أسفل تمثال يونس وتشربان الماء متطلّعتين للسماء، ومِرجان أيضًا ستشرب بيرة وتتطلّع للسماء.

حسنًا.

لو رآها أحد معارفها الآن وهي تجلس هنا... ألن يقرّر زوجها العودة إلى البيت. يدخل الرجل فجأة ساحة صمدية وينظر، أوه... ماذا يرى! ترتدي زوجته ثيابًا أنيقة وتجلس في أحد البارات. أليس رجلًا؟! مَن لم تكن تضع طلاء شفاه وتتجوّل به في البيت حتى؛ صارت الآن تتجول به في الشارع وهي متبرجة أيضًا! ألم يكن لي قيمة بمقدار الرجل السائر في الشارع؟! أخرجت مِرجان منديلًا من حقيبتها ومسحت

الروج. تعلّقت عينها بسمك البربوني السابح في الحوض الأزرق القابع على المنضدة. كان زوجها يحبه... إذا عرف زوجها حين عودته للبيت بخروجها للتسلية دون أن تحزن عليه مطلقًا بعد ذهابه؛ مَن يدري كم سيحزن. سيأخذ على خاطره، حتى إنه قد يتراجع عن عودته لبيت. تطلّعت مِرجان لوهلة إلى ساحة صمدية، وإلى الجالسين على الطاولات أمام الحانات. ماذا ستفعل؟! حتى لو جلست ستكون وحيدة ناكسة رأسها... تراجَعت مِرجان عن تخصيص وقت لنفسها وبثّ روح الفرحة في يومها؛ أمّان أمّان، ليكن هذا لهم! ثم استدرات وتوجّهَت نحو الدرج.

صعدت السلالم راكضة. كانت تسعى بأقصى سرعة للالتقاء بمِرجان هانّييم التي علّقتها على مدخل الدرج وهي نازلة للساحة، وإلى ما هو أهم؛ الذهاب إلى البيت ومشاهدة التلفاز. وعندما وصلت إلى السُلّمة الأخيرة استدارت وألقت نظرة على الساحة المكدّسة. كان هذا ضروريًا حتى لو كان من أكبر مخاوفها، وعندما استدرات مِرجان وتركت السلمة الأخيرة خلفها رأت زوجين -نعم كان الخاتمان في إصبعيهما- يهبطان الدراجات متعانقين. همس الرجل للمرأة بشيء في أذنها، وبمجرد أن سمعته المرأة أطلقت القهقهات ثم ألقت برأسها بغتة على كتف الرجل. ألم تكن هذه الأشياء تحدث فقط في المسلسلات؟! أي إنه يوجد في الحياة الواقعية أيضًا رجال يحبون نساءهم... ها هو الرجل لم يقُل: أصبحت هذه المرأة زوجتي؛ إنها في جيبي! بل يُحضرها لساحة صمدية للتسلية ويُسمعها النّكات كي يُضحكها... يا إلهي، ماذا كان ينقص مِرجان عن هذه المرأة التي تنزل السلالم مُطلِقَة القهقهات ومعانِقَة زوجها؟! كان ينقصها زوج. صرفت وجهها عن مِرجان هانّييم وهبطت الدَّرَج بسخط، وجلست على الفور في بار باريس الصغير، أول مكان عند مدخل الساحة.

أوه!

جلست كأي زوجة تجلس في البار. لو كان زوجها زوجًا لترك نقودًا عندما ترك البيت، ولكان بإمكانها الجلوس في الحانة وليس البار. أتى النادل:

- مرحبًا بكم! قالها وترك القائمة على الطاولة.

وقبل أن تنظر مِرجان للقائمة قالت:

- كأس بيرة!

- حجم 50 أم 30.

- 30.

أخذ النادل القائمة وذهب. اتَّكأت مِرجان للخلف وتطلَّعت إلى البار المزدحم... كان الناس سعداء... ألم يكن لهؤلاء أيضًا أي طموحات في الحياة؟ ها هم ذا أغلقوا أبوابهم وأتوا. فما دام أن خالق مِرجان هو الله ستواصل العيش. ووظيفتها هي الخدمة.

حملت النسائم الخفيفة هواء البحر إليها. أوه! خيرٌ أن جلَسَت هنا.

أحضر النادل البيرة.

- تفضَّلي!

وأحضَر معها مكسرات بموجب الضيافة، فرفعت مِرجان رأسها ونظرت إليه:

- شكرًا جزيلًا! أتعبتك معي!

لم يكن النادل وسيمًا ولا قبيحًا.

- عفوًا، إنه عملنا!

كان النادل محترمًا ومهذبًا ومهتمًا وفقًا لأنه أحضر المكسرات من نفسه، ولم يكن متزوجًا ولا خاطبًا، لأن أصابع يديه لا تحمل أي خواتم. هل يا تُرى أراد بقوله «إنه عملي» أن يوضِّح أنه لم يقدم لها شيئًا خاصًا وألَّا تعتبره يميزها؟! كان النادل رجلًا مجتهدًا منشغلًا بوظيفته، ولم يكن طائشًا مثل زوج مِرجان.

- بالهناء...

قالها ثم غادرها.

ماذا فيها إن ذهب زوجها؟ ها هو رجل آخر يقول لها بالهناء؛ مع أنه يقولها مقابل

أجرته. ألم يقُل «إنه عملنا»؟! ماذا يعني؟! أما كانت مِرجان تصرف على زوجها؟! قول «بالهناء» معتاد مقابل الأجرة. انسابت القطرات الباردة من كأس البيرة. ارتشفت جرعة، كانت رغوتها مُرَّة؛ لكن انتابها شعور ممتع كونها المرأة الوحيدة التي تشرب البيرة بمفردها في المكان. أوه، ما أجملها من حياة! كان النادل يقول لزبون آخر «أهلًا بكم!». هذه وظيفته. تطلَّعت مِرجان لغيرها من السيدات الجالسات في البارات والحانات المصطفة في الباحة. ماذا يفرقها عنهن؟ ماذا أقول؛ ربما مُسح طلاء شفتيها؟! وهل توجد امرأة أخرى غيرها في الساحة الفسيحة بلا طلاء شفاه؟! ثمة آداب للجلوس في ساحة صمدية. أخذت مِرجان حقيبتها ونهضت من على الطاولة. أشار لها النادل:

- دورة المياه في الداخل على اليمين.

لا بُدَّ أنه كان يتابعها. أو أنه قال في نفسه: «أرأيت المرأة، ارتشفت جرعتَي بيرة ثم ركضت إلى الحمام». لا... لا يمكن. لا يبدو النادل شخصًا هكذا.

طَلَت مِرجان شفتيها بأحمر الشفاه أمام مرآة الحمام، ليحدث ما يحدث! حتى إنها وضعت أحمر الشفاه، مسحت الزيادة بالمنديل، فعلت ما اقتضته زينتها اليومية، ألقت برأسها للأمام وأطلقت شعرها في الهواء. تطلَّعت ثانية إلى المرآة. إن رآها زوجها هكذا بأحمر شفاهها ومكياجها... ليَرَها... لو لم يذهب لما اضطرَّت زوجته لطلاء شفتيها والذهاب للبارات.

كان النادل الذي أخذ طلبها منذ قليل يقوم بالتقديم لطاولة أخرى بينما هي تمر، لا؛ لم يقدِّم مكسرات بجانب البيرة لهذه الطاولة. جلست مِرجان على طاولتها. أووه يا... ماذا جرى حتى تحبس نفسها في البيت بعد ذهاب زوجها وتتفرَّغ للتلفاز؟! وهل هناك مثل أن يسرِّي الإنسان عن نفسه! فحتى لو أن لها زوجًا وأصدقاء، لماذا تجلس في البيت؟ لتتجوَّل، وأمَّا عن تخصيص وقت لنفسها فتتعلق بمحيطها بعض الشيء؛ أي إنه لو كان لها صديقة لقالت لها هيَّا يا مِرجان لنفعل كذا وكذا... وإلا فأي مكان قد يخطر على بال مِرجان لتذهب إليه؟ فقط إن كان هناك فرح لأحد أقربائها أو ما شابه... وهذا طبعًا هَمٌّ آخر. ركوب الحافلات والذهاب للطرف الآخر من إسطانبول

وتعليق الذهب للعروسين؛ ليس لديها طفل ليعلّقوا لها الذهبات... لا عودة إذن لذهباتها التي تمنحها للأبد.

بَيْدَ أنها خيرًا فعَلَت بمجيئها إلى هنا، وستكرر هذا. بعد أن تكسب نقودها ستجلس في البيت إن شاءت أو تأتي إلى ساحة صمدية وتحتسي البيرة. ليس هناك مَن يقابلها أو يلتقيها. فقد أصبحت امرأة تتجول بحرية. والآن إن قابلها هنا أحد مقّن يقطن في العمارات التي تمسحها... ياه، ستشرب على نخبه! ولو أنه أين هؤلاء من المجيء إلى ساحة صمدية وشرب البيرة... لا تحصل الهانم لقبها بالسكن في الطابق الثالث والرابع. يكون هذا نابعًا من أعماق الإنسان. فلا جدوى إذن حتى لو تغاضينا عن مدّ السَّبَت للبقّال ما دام مكتوبٌ عليها المسح!

النسوة اللاتي في الساحة... تجلسن جميعًا إما في مجموعات أو مع أحبائهن أو مع أزواجهن... رمشت عيناها بينما تجلس على كرسيها، أخذت حبّة فستق من طبق المكسرات، كسرت قشرتها بطرف إصبعها ثم قذفت بها إلى فمها. **أجلس هنا بمفردي كما لو أنني أنتظر أن يطلبني أحد.**

أخرجت المحمول من حقيبتها وبدأت تعبث فيه، طالَعَت كل الرسائل التي وصلتها من صاحب العمل، «عميلتنا المحترمة مِرجان، هل ترغبين في التحول لنظام الدفع الآجل؟»، يحثّونها للتحول للنظام الجديد. إذا لم تقم بشحن البطاقة الأسبوعي سيغلَق الخط. لو تذكّرها زوجها وتذكّر رقم هاتفها وعثر على خطّ للجوال واتصل بها فلا يمكنه أن يصل إليها. بعد قراءتها لرسائل هاتفها تطلّعَت حولها، كان الجو يظلم، وامتلأت تقريبًا كل الكراسي الموجودة أمام الحانات والبارات. هل ينظر لها بحُبث الرجلُ الجالس أمامها في البار بلا خجل ودون أن يملّ؟! لتفقأ عينه... عديم الاحترام! إيه... لا يحصل لقب البك بالجلوس في ساحة سياحية إذن. فذلك النادل بك أكثر ألف مرة من جوال النقود الذي ينظر إليها، التفتت وألقت نظرة عليه. لا؛ لم يكن ينظر

أزاحت كرسيها للجانب قليلًا وأعطت ظهرها للقذر الذي كان يتطلّع فيها، لا بُدّ أن النادل على أية حال أدرك أنها لم تغتَرّ بماله وأدارت له ظهرها ولم يَقُل إن الرجل يجلس في بار واسع، ألم يكن ينظر إليها منذ قليل عندما نهضت للذهاب للحمام

وأتى على الفور فقال لها «دورة المياه على اليمين»؟! أي إنه كان ينظر دون أن يلفت الانتباه...

لم يكن النادل وسيمًا، لكن كانت لديه رموش طويلة، إن طرف بعينيه سيفيض طوفان ويحمل في طريقة القطار إلى صمدية. لم يكن النادل وسيمًا، لكنَّ عينيه كانتا واسعتين، لدرجة أنه لو بكى لقُلنا: «أوه يا لرائحة التراب الندية الزكية!». لم يكن نادلًا... كان وسيمًا بالفعل! تلاقت عيناها بعينيه. ألقى عليها النادل تحية باهتة، بدت أسنانه الرفيعة، ومن ثم أدار النادل ظهره لمِرجان.

انشقَّت الأرض من أسفل مِرجان، انشقَّت وابتلعتها. لا شكَّ أن الرجل الآن يقول: «انظر للمرأة لقد وضعتني في رأسها». كان عليها أن تنهض الآن على الفور، لكنها كانت لا تزال في رشفتها الأولى. لو تركت البيرة الآن وذهبت لقال النادل ها هي ذهبت لأني لم أُعطِها وجهًا. البيرة حجَّة في الأصل؛ لقد جلست هنا من أجلي، وحتى إن قلنا إنها لم تجلس هنا لأجلي. فلِمَ وضعت أحمر الشفاه إذن؟! بالطبع حقًّا، فعندما أتت لم تكن به، ذهبت لدورة المياه لوضعه ثم أتت، ألم أفهم هذا؟!

تجرَّعَت مِرجان رشفة كبيرة من كأسها حتى كادت أن تنهيه. ستلتهي إن حادثت أحدًا في الهاتف. نعم، نعم، إنها فكرة جيدة! أمسكت الهاتف بيدها. لكن هل كانت ستجلس في البار بمفردها وتتحمَّل غطرسة النادل لو كان هناك مَن تتَّصل به؟!

قلَّبَت في الأرقام وضغطت على زرّ «الاتصال» بتردُّد، جاوَزَت الحد؛ لم يعُد هناك شيء تخسره:

- آلو... كيف حالك؟ لم أسمع صوتك منذ مدة... قلقت عليك. أنا؟ بخير. ذهبت لأشرب بيرة بعد الخروج من العمل. نعم... كي أتخلَّص من تعب اليوم.

- كانت تتمهَّل بعد كل جملة من ثانية لثلاثة ثوانٍ لانتظار الجواب. وكأنها تتكلم مع أحد في الحقيقة. أي ليظنَّ النادل هذا... فمن أين سيعلم النادل أنها في هذه الأثناء فقط لتبدو وكأنها تفعل شيئًا في البار؛ تتصل بهاتف زوجها الذي لم يفكر في أخذه وهو ذاهب من البيت وتترك رسالة بعد الرسالة الإلكترونية التي تخبرها بأن الهاتف

مغلق...

- قالت مِرجان: «وأنت أيضًا اتَّصِل!».

- رَنَت بطرف عينها للنادل؛ لم يكن مهتمًا البتَّة، ولم يلتفت لها حتى... تجرَّعَت كأسها بسرعة... كم هو ممتلئ!

- نزل العازفون الجوَّالون إلى الساحة وأخذوا يطوفون بين الطاولات، ثم توقفوا بناءً على طلب إحدى الطاولات التي في المقابل وبدؤوا العزف:

- اشتقت لعينيك السوداوين سواد الشاي

- وتذكَّرتُكِ فأعددت الشاي

- لو تعرفين كم انتظرتك

- ارتشفت مِرجان من كأسها رشفة أخرى.

- آهٍ شايكارام(4)، يا جرح قلبي، أين أنتِ

- أينما كنت ومع مَن كنت؛ ملكي أنتِ

- زوجها... لو كان يجلس الآن معهم مقابلها ماذا كان جرى... ماذا يقول النادل لو رآها الآن تتجرَّع كأسها بسرعة... أمَّان! ومَن يكون هذا؟! لم تعد مِرجان تهتم بأمر زوجها حتى... وها هي تجلس هنا الآن بمفردها...

- غلبني الشوق

- هذا القلب إلى الأبد تكفيه أنتِ

- ماذا تقولين على حنيني وافتقادي لك

- آهٍ شايكارام، يا جرح قلبي، أين أنتِ

- أينما كنتِ ومع مَن كنت؛ ملكي أنتِ

كانت الطاولة التي طلبتهم يعمُّها البهجة، حتى إنهم نهضوا ورقصوا الرقصة

الرومانية بجانب العازفين. ماذا ينقص مِرجان عن النساء اللواتي لديهن زوج أو رفيق، وبالأخص زوج -بغَضِّ النظر عن الراقصين أمامها- تتحدث معه ولا تضطر للتظاهر بالحديث معه في الهاتف؟!

عيناي جافاهما النوم

وقلبي يخشى الفقدان

لم أعِش حبًا كهذا من قبل

- آهٍ شايكارام، يا جرح قلبي، أين أنتِ

- أينما كنت ومع من كنت؛ ملكي أنتِ

كان كل مَن في الساحة يطلقون القهقهات ويتسلون بطريقتهم. يا لسعادتهم!

إلهي، لِمَ فرضتَ على مِرجان الوحدة؟

وضعت مِرجان الكأس على فمها وتجرَّعَت آخر شربة ومدَّته إلى النادل:

- أخي!

كم فعلت جيدًا بمناداته بأخي؛ ليفهم أنها لا تهتم به...

أتى النادل:

- هل أعيد مَلئه؟

ماذا تعني بإعادة ملئه؟! اهترأت أعماقها من أجل شرب كأس بيرة.

- لا؛ أنا أريد الحساب.

قال النادل: «حسنًا... حسنًا» مومئًا برأسه. كان هذا عمله. وضعت مِرجان هاتفها في حقيبتها، فطرقت وكأنها على عجلة من أمرها الطاولة بيدها -بيدها التي تحمل خاتم الزواج، نعم- ثم جلست تنتظر الحساب. أحضر النادل الفاتورة، وفي حين كانت مِرجان تأخذها؛ إنه ليس أعمى، لا بُدَّ أنه لاحظ خاتم الزواج. دفعت الحساب، وبينما

تنهض قال النادل:

- في انتظاركِ مجدّدًا!

لا سمح الله!

- سهّل الله عليكم!

صعدت سلالم ساحة صمدية بسرعة والتقت مِرجان بمِرجان هانم.

سارت في شوارع صمدية منقطعة الأنفاس، كان عليها أن تصل لبيتها على الفور وتفتح التلفاز. ليس هناك آتٍ ولا غادٍ ولا أحد يراها جالسة أمام التلفاز بمفردها... هل ستعيد تخصيص وقت لنفسها؟ معاذ الله! سيقولون من السهل تطليق زوجة تعيش بمفردها. لا! بل طلاق الزوجة والزوج عندما يكونان متزوّجَين أسهل، فالإنسان المتزوج سيقول ليذهب إن شاء فهل سيتوجونني بتاجٍ إن بقي ولن يفهم قيمة أن يكون في البيت صوت وشخص يناكفه. وحدهن العزباوات ومَن يعِشن بمفردهن يعرفن هذا. فهُنّ يعلمن ماذا تعني حشرجة الثلاجة؟ وصوت تنقيط مياه الصنبور؟ وعدم العثور على شخص في الشارع يلقي عليهن التحية والالتجاء للتلفاز؟ والبقاء معه وحدهن حتى صدور صوت؟ وماذا يعني تناول الطعام في صينية؟ وعدم وجود شخص يمدُّ لهنّ شريحة فاكهة بعد تقشيرها؟ الإنسان الوحيد يعرف هذا.

لا... لا! لن يقولوا اذهبي إلى زوجك... فكم من الأزواج والنساء في التلفاز. ماذا تفعل النساء في التلفاز؟ يجلسن أمام أزواجهن بينما يحتسين الشراب ويشربن أيضًا ويزيّنّ موائد التسلية حتى يشربوا معًا. ويخلِطن العرق بماءٍ لأن ظهور العرق الأبيض على التلفاز ممنوع، ولا يَقُلن العرق المخلوط مُرٌّ أو لاذع ولا، يلوين شفاههن لئلّا يتركن أزواجهن بمفردهم... أليست هذه الأنوثة؟

هيهات!

لو كان تدخين الحشيش متاحًا كذلك في التلفاز لرأت أنوثة تلك النسوة. سحبت مِرجان ذات مرة نَفَسًا من سيجارة زوجها، كان مذاقها كمذاق إطار العربة المحترق... لا يمكن، ليست لديها القدرة على تدخين الحشيش.

دلفت مِرجان إلى بيتها وفتحت التلفاز، أوه... الحمد لك يا ربي.

يا لجمال النساء اللاتي في كليبات الأغاني! هُنَّ أيضًا يعشن بمفردهن، لكنهن يعرفن كيف يخصِّصن وقتًا لأنفسهن في الحقيقة. يجمعن ثيابهن بالشماعات من دواليبهن في حقيبة ويخرجن للعطلة؛ مع العلم أنهن لو أخرجن ثيابهن من الشماعات ووضعنها لشغلت مكانًا أقل، ويغنين الأغاني بينما تتطاير شعراتهن في الهواء من زجاج النافذة المفتوح من جهة، ومن جهة أخرى يطرقن بأيديهن حافة الزجاج على نغمة الأغنية.

لا... لا؛ ليس من الممكن أن تترك مِرجان عملها وتخرج في عطلة، كما أنه ليس لديها رخصة قيادة سيارة؛ وحتى لو أنه لديها، لا تستطيع ركوب سيارة مفتوحة، فيتدلى حيدر من السيارة ويقع.

لم تكن مِرجانِ تستطيع تخصيص وقت لنفسها، خُلقت مِرجان لتكرس نفسها لزوج، لابن... وعندما لم تجد مَن تعتني به لم يَعُد بإمكانها تخصيص وقت لنفسها. كانت امرأة تستطيع الوقوف على قدميها لو سقطت؛ لكن عدم وجود يد تمسكها جعلها أمام الآخرين مثلما في هذا اليوم تحت رحمة أهواء النادل.

يا إلهي، إنك أكثر مَن يفهم مِرجان، إن عبادك يحتاجون إليك، وإنك لا تحتاج لأحد. ومِرجان في حاجة لمن يحتاج لها كي تصبح قوية ولا تحتاج لأحد.

كان قاطِنو العمارات التي تمسحها مِرجان يعطونها الثياب التي لم يعد يرتديها أبناؤهم، ما عادوا بالطبع يفعلون هذا. كبرت الوالدات، وكبر المواليد، وهم يتبرَّعون بثيابهم القديمة لمِرجان على أنهم يفعلون خيرًا. ويقولون: «خذي هذا لابنك؛ لبسه ابني أربع أو خمس مرات تقريبًا. ما زال جديدًا...»، فترد مِرجان: «لا، لن آخذه؛ ليس لي ابن بعد...».

وتقابَل بشتى الاستفسارات القاسية التي تمتد من «وهل ذهبت للعلاج؟» إلى «لعله راحة لك، الله أعلم!». تركها صدقي وذهب، ولم تعُد مِرجان تقول لسكان العمارات التي استلمت المسح فيها حديثًا إنه ليس لها ولد...

«خذي هذا لابنك...».

فعلى الرغم من أن أحدًا لم يرَ طفلًا بجوارها، ولا لهّاية في يدها، ولا حقيبة طعام، ولم تطلب إذنًا في يوم من أجل اجتماع أولياء الأمور لدى حيدر... إلا أنها كانت تبدو امرأة لديها أطفال بلا شك. بلا شك أبدًا. لا بُدَّ أنها عندما تأتي لمسح العمارة تعتني ابنتها الكبيرة بالصغار في البيت، لا بُدَّ أن الأطفال في البيت يقعون ويكبرون ضعفاء، ولا بُدَّ أنها ترسلهم في الصيف إلى أمها في القرية. هذا ما يلائم امرأة في وضعها.

لم تَرُدَّ مِرجان ثياب الأطفال في أول يوم لها، وعادت لبيتها تحملها في يدها؛ لتعطيها للمحتاجين؛ وما إن وجدت مَن هو أفقر منها فتحت الكيس... ليس لدى سكان هذه العمارة رحمة أو شفقة، في أيام الشتاء حتى لا يفكر أحدٌ منهم في تسخين المياه التي يعطونها لها قليلًا كي تمسح الأرض، سوى الطلبة؛ هم مَن فكّروا في إعطائها مياهًا دافئة. غير أنه عندما يتعلق الأمر بثياب الطفل يبدي سكان العمارة اهتمامهم. إيه! هل من السهل أن يصبح أبناؤهم نافعين للأجيال الجديدة؟ وهم أيضًا يقومون بما يقع على عاتقهم كآباء وأمهات. تُغسل الثياب بالمنعّمات ذات الروائح العطرة وتُكوى. وحتى هي نفسها تغسل ثياب حيدر بالمنعّمات لتصبح رائحتها عطرة.

ازدادت ثياب الأطفال في البيت بمرور الوقت، وتحوَّلَت حجرة نومها بمرور الوقت لحجرة أمٍّ تحتفظ بذكرى ابنها الميت.

اللهم هَبْ مِرجان تلك ابنًا، وأعِذ لها زوجها...

كانت مِرجان ستتقبَّل الوضع وقرَّرت الاستسلام. الأمل جيد؛ إنه صوت في أعماق الإنسان.

لكنها...

كرهت الاستيقاظ ليلًا والدعاء لعودة زوجها والاتكاء على أبواب جامع سمبل أفندي. لن يعود زوجها. ما أفضل ما كان يقوله سكان العمارة عندما يأتي ذكر طفل مِرجان «الله أعلم».

بذلت مِرجان أقصى ما لديها للاستسلام. كان عسيرًا. عدم النظر في الهاتف على

الدوام علّ زوجها عثر على بطاقة هاتف واتصل بها، وعدم تحويل الطريق والذهاب إلى جامع سمبل أفندي، وعدم تعلّق عينها بالنافذة وانتظار مرور حذاء زوجها. كان الأمر عسيرًا.

كان قطع مِرجان الأمل من الله عسيرًا؛ لكنها كانت قد تخلّت عن الدعاء لأنها تحب الله.

نعم؛ اتّخذَت مِرجان قرارها، وستتقبّل الوضع إذن. ما دام أن زوجها لن يعود فستؤسّس نظامها الخاص. لا؛ سترتدي مِرجان كأنها ذاهبة إلى فرح وتذهب إلى البار من أجل تخصيص وقت لنفسها وليس من أجل أن تجد مَن يضحك لها في زواياه، ولأجل أن تتخلص من إرهاق اليوم وليس لجذب انتباه كلب لا يساوي ثلاثة قروش من أجل ألّا تكون وحيدة.

اتّخذَت مِرجان قرارها. لا تبحث عن عون، وسترضى بطعامها القليل ووحدتها ورأسها المهموم. لم تعد يحزُّ فيها أن مرادها لن يتحقق إن تركت الرجاء. كان زوجها عبدًا وستسعى لنسيانه؛ لكن الله... لا يمكنها نسيانه. كان زوجها أخرق؛ لم تصدقه أبدًا. لكنها آمنت بالله دومًا. لا يمكن أن يقهرها أن الله لا ينظر لها؛ فالأمل من الله لا ينقطع.

عليها ألّا تتأمّل شيئًا لئلّا تقطع الأمل، وألّا يرى الله تخلّيها عن أبوابه. لقد تخلّت عن زوجها وقالت له: «إن شئتَ فاذهب»، وماذا حدث؟! بقيت وحيدة في هذه الدنيا الواسعة. مَن لها غير الله؟ لا... لا؛ لن يمكنها أن تتخلى عن ربها.

أليس لدى الله شيء آخر في هذه الدنيا ليهتمّ بزوج مِرجان الأخرق؟! لا، لن تتخلّى مِرجان عن ربها. إن كانت لديها ذنوب وأخطاء فليعفُ الله عنها؛ فقد رضيت مِرجان بالله، وقبلت بحالها كما هو.

صارت مِرجان تذهب من البيت للشغل ومن الشغل للبيت. وهل يذهب مَن لديهم أزواج وأبناء إلى القمر؟ هُنّ أيضًا يعملن على إشباعهم، ويرجعن مساءً إلى بيوتهن فيغلقن أبوابهن. ومِرجان -بعد أن دفعت إيجارها وأشبعت بطنها- ستجلس هي

الأخرى في البيت... أي أن الدور اليوم على التلفاز. التلفاز جيد؛ إنه صوت في البيت.

ذهبت مِرجان إلى البيت ذلك المساء بعد أن تسوَّقت من محل صغير دون المرور على جامع سمبل أفندي. ففتحت التلفاز بالطبع ثم دخلت إلى المطبخ، وأخذت تضع ما اشترته من المحل في الثلاجة وهي تتطلَّع له بفخر. الحمد لله أنها تعمل وتتسوَّق. أخرجت البضائع التي اشترتها ورصَّتها واحدةً واحدة؛ نصف كيلو طماطم، وثلاث خيارات، وخمس بصلات، وست أو سبع فلفلات حارة... حين تشتري بالكيلو لا تستطيع أن تُنهيها وحدها، ثم هل كانت ستأكل طماطم ذابلة بعدها لعشرة أيام؟! وماذا عن شراء كمية كبيرة من صلصة الطماطم؟ حسنًا؛ لا تتعفَّن الصلصة إن وضَعت فوقها زيت زيتون، لكنه إن لم يَصِل ارتفاع زيت الزيتون حتى نقطة رأس الإبرة ألن يمسك بها العفن الأبيض؟! حسنًا فعلت أن اشترت كمية أصغر.

لا يكفي ما اشترته من المؤونة مِرجان إلا لملء ثلاجة بيت باربي. كانت مِرجان بالطبع تعرف ما هو بيت باربي. رأت تقليده في السوق الياباني. آه، يا إلهي! ماذا يحدث لو كان لمِرجان طفلة فتاة وليس حيدر؛ أمَا كانت مِرجان ستعطيها قطعة عجينة لتلهيها بينما تطهو الطعام قائلة لها: «خُذي هذه واصنعي عينًا وحاجبًا؟!». اسم الفتاة سيكون... لا... لا، كان عليها أن تفكِّر في هذا. كيفما يقضي الله؛ لن تفكِّر في ذلك. عليها أن تستسلم. أخرجت قِدرًا من أسفل المنضدة. ستقضي العشاء هكذا بشطيرة جافة. فما دام أن الله لم يرزق مِرجان بأحد ولم يجعلها لأحد... ماذا تقول النساء التي تُربي أطفالًا بلا آباء؟ سأكون أبًا وأمًّا لطفلي. ومِرجان أيضًا ستكون أبًا وأمًّا وابنة لنفسها من الآن فصاعدًا.

قشَّرَت البطاطس وقطَّعتها. ماذا كانت ستفعل لزوجها؛ إن كان ذهب فليذهب. وضعت البطاطس المقطَّعة في المياه، والطفل أيضًا، فهو قضاء الله... قطعت البصل مكعَّبات. تناهى إلى سمعها من الداخل صوت برنامج التزويج، كان مُفعمًا بحماس ليلة التصفية نهاية الأسبوع. أشعلت الموقد وسخَّنت الزيت في القِدر، ثم بدأت تقلب البصل عليه. وعندما انبعثت رائحة البصل المحمَّر قالت مِرجان: «ها هو ما يقال عليه بيت».

كانت مِرجان تحمّر البصل هذا المساء نكاية في النساء اللاتي يقطنّ في الأدوار العليا للعمارة التي تسكنها، لتصل رائحته لأنوفهن. خلطت الصلصة بالبصل ثم وضعت البطاطس في القِدر ووضعت فوقها مقدارًا من المياه ثم أغلقت غطاءها. كانت تذهب بين الحين والآخر للصالون فتنظر الملخّص الأسبوعي لبرنامج التزويج. رأت في التلفاز ما يسمّونه المطبخ الأمريكي؛ يكون مفتوحًا على الصالون حيث يمكنك مشاهدة التلفاز بينما تطهو الطعام. رفعت صوت التلفاز قليلًا ليصِلَ للمطبخ. إنها امرأة تعيش بمفردها؛ فما الداعي لمائدة مُكلِفة إلا لو كان هناك أحد تُطعمه في البيت... لم تقُل «ألم أشبع من برانش الأحد؟!»، ولم تتكاسل عن تقطيع السَلَطة؛ ولكن لأن صوت المياه علا على صوت التلفاز القادم من الداخل غسلت مكوّنات السَلَطة على عجلٍ ثم قطعتها شرائح صغيرة... كانت قد اشترت من المحل دبس الرُمّان. رأته في برامج الطبخ؛ أي أنها تعلم أن الناس يضعونه على السلطة...

قلبت البطاطس التي على الموقد ثم ذهبت إلى الصالون، أعيد تكرار مشاهد المنافسة المنتهية للمرشّحات ليَكُنّ العروس خلال أسبوع على الشاشة من جديد...

ذهبت للمطبخ خلال الإعلانات، ففتحت غطاء القِدر الذي على النار وغرست شوكة في حبّة بطاطس؛ حسنًا! لقد نضجت. أخذت قطعة بطرف شوكتها ونفخت فيها لترى طعمها؛ أصبحت لذيذة... زوجها كذلك... أمّاااان... وضعت الطعام في الطبق ووضعته على الصينية مع السلطة ثم ذهبت بها إلى الصالون.

انتهت الإعلانات؛ كانت أول عروس مرشّحة في الأسبوع قد بدأت تعارُفَها بالحبيب السابق لجارتها في البيت وأقرب أصدقائها. والله لو بقي الأمر لمِرجان فإنهما يليقان ببعضهما البعض، كما كان يبدو من البداية أنه سيحدث شيء بينهما. أي أن الفتاة تمالَكَت نفسها كي لا تصبح سيئة أمام الناس. والناس كذلك لم يعيبوا عليها أبدًا، بل إنهم حتى صوّتوا بغزارة لدعم علاقتهما، فاختاروها الأولى وأنقذوها من الوقوع في مرحلة التصفية. تناوَلَت مِرجان طعامها وهي سعيدة... ما أجمل هذا! إنها تعمل وتضع على سَلَطتها دبس الرمان. الحمد لله على هذا.

أمّا الحبيبة السابقة للعريس المرشّح الذي بدأ مرحلة التعارف بالمرشّحة الأولى

فتمنت لهما السعادة مدى الحياة. **تأمل نظرتها تلك وكيف تتحدث ملمّحةً بشيء. السعادة مدى الحياة، لن يُكمِلا للغدا كتب اسم حبيبته السابقة في التصفيات النهائية هذه. الفتاة تحت الحماية لن يتمّ تصفيتها، أمّا الشاب فلو تمّت تصفيته...** ظهر في منتصف الشاشة خطٌّ رفيع.

ثم...

انطفأت الشاشة.

تركت مِرجان صينيتها على الأريكة. الله... الله... ماذا جرى الآن؟ وضغطت على زر الفتح في الريموت. لم يفتح. ذهبت إلى جانب التلفاز وأخذت تضغط على زر الفتح والإغلاق. لم يفتح. سحَبَت الفيشة ووضعتها ثانية. لم يفتح. عجبًا، أمَا كانت التلفازات القديمة تنطفئ شاشاتها هكذا عندما تنفد أنبوبتها؟! لا يمكن! انتهت أنبوبته قبل أن ينتهي تقسيطه؟! لقد اشترت هذا التلفاز بالمال الذي خصَّصَته لتداويها بعد أن قطعت الأملَ في أن يصبح لها ابن. أضَعُفَ تيّارُ الكهرباء يا تُرى؟ سحبت مِرجان كل الفِيَش التي في البيت وضغطت زر الفتح في التلفاز لتصل الكهرباء إليه فقط. لم يحدث شيء. أنزلت مفتاح الكهرباء ورفعته. إييه! لم يعمل التلفاز. كهربائي تلفازا... أطبق الليل، وفي هذا الوقت حتى لو أرسَلَت طلبًا لن يأتي أحد. ستنظر في الأمر صباحًا إذن.

يا تُرى مَن ستجري تصفيته في البرنامج؟

رفعت مِرجان صينيتها إلى المطبخ. فقدت شهيتها. ضغطت على زر فتح التلفاز مجددًا. لم يفتح. ماذا ستفعل دون تلفاز طوال الليل هل ستطّلع للجدران؟ أطفأت المصباح. لم تفرد السرير، بل تمدَّدَت كما هي على الأريكة. سيكون أول عمل لها في الصباح طلب مُصلِحٍ للتلفاز... يا رب، ليفتح التلفاز من تلقاء نفسه عندما تستيقظ صباحًا.

حاوَلَت النوم. التفتت إلى هذا الجانب... ثم تقلَّبَت على الجانب الآخر... حين كانت تنقطع الكهرباء في طفولتها كان جدُّها يقول: «هكذا أحسن»، «لم يكن هناك تلفاز

قديمًا. وكانت بيننا محادثات، فكنّا نقول ألّا نجتمع مساءً؟ أما الآن فما أن يفتح المرء فمه حتى ينظر للتلفاز. ليس ثمة أحد ينظر إلى أحد ولا يتحدث له كلمتين حتى!»، ومن ثم يشرع في رواية الحكايات القديمة... لم يعُد هناك أحد يحكي لها حكاية... وإلا فماذا يجعلها تحزن لأن التلفاز لا يعمل... كان مُحِقًّا. أثرى لأنه كان مفتوحًا على الدوام... هل يعمل الآن بعد استراحته لمدة؟! نهضت وأضاءت المصباح. أمسكت الريموت مُسمِّيةً باسم الله. اللهم فرِّح قلبي. ضغطت على زر الفتح. رجاءً يا الله! لم يفتح. جثت على ركبتيها تنظر للتلفاز وفي يدها الريموت. لم يكن لمِرجان أحدٌ سوى التلفاز. هناك فيلم: الظبي الصغير ما زال وليدًا. حيث تتبنّى ثَريّة التي ليس لديها طفل ظبيًا صغيرًا، وتقول لأمه: «مات ابنك»، فتجول أم الظبي الوادي لأعوام باكيةً وهي تشد بحجر ضخم على صدرها مكان ولدها. ومِرجان ليست ثريّةً، لكنها أيضًا ليس لديها ابن. لم تستطع مِرجان تصليح التلفاز فبكت واضِعةً الريموت على صدرها مثل الأم التي شدّت الحجر على صدرها لتسكين ألم الفقدان.

مسحت مِرجان دموع عينيها. ثم قامت. ارتدت سترتها وخرجت من البيت. ومع خروجها بتلك العجلة نسيت ارتداء حمالة صدر، وإلا فإنها كانت امرأة ترتدي حمالة صدرها قبل خروجها للشارع حتى لو كان بسبب وقوع زلزال. سارت في شوارع صمدية رابطة صدر السُترة بيدها. وماذا بقي لها في هذه الحياة غير التلفاز... لا بُدّ من وجود مصلح تلفاز هنا. ربما طال عمله وبقي حتى الآن؟! وإن لم يبقَ. أهو مثل الموظف يغلق محله ويذهب بعد غروب الشمس؟ ماذا عن الكهربائي؟ ربما يستطيع هو الآخر تصليح التلفاز. فهو آلة كهربائية في النهاية. ربما تجد كهربائيًا فاتحًا... لا يوجد.

سارت في شوارع صمدية بأمل العثور على مُصلِح للتلفاز أو كهربائي، كأنها تبحث عن خدمة عاجلة تلحق بابنها المصاب بالحمى. أصبحت الثانية ليلًا. لم يكن هناك محلٌّ فاتحًا غير كوافير رجالي. يا إلهي، من! سيقص شعره في هذه الساعة؟! إن كان الحلاق يداوم عمله فلِمَ لا يداوم مُصلِح التلفاز كذلك؟ بدأت طريق العودة في يأس... آه، لم تكن مِرجان تستطيع النوم دون تلفاز! دخلت العمارة، وما أن وصلت لباب بيتها... الحمد لك يا ربي؛ كان صوت التلفاز يأتي من الداخل. لا بُدّ أنه أغلق عندما

سخن ثم فتح مجدّدًا من تلقاء نفسه. هكذا الله يمنح الفقراء خيولًا بدل حُمُرِهم التي فقدوها ليُسرّي عنهم. بحثت بسرعة عن المفتاح في حقيبتها. لا، ليس موجودًا. كان يتم الإعلان في التلفاز عن العريس والعروس المرشّحين الذين صعدَا للتصفيات. أفرغت حقيبتها في ساحة العمارة. لم يكن المفتاح موجودًا. لا بُدّ أنها نسيته في الباب وهي تخرُج من البيت على عجلة. سامحها الله. أسندت أذنها على الباب واستمعت. كانت العروس المرشحة المفضّلة لديها في التصفيات النهائية.

سارت مِرجان ثانية تحت ظلمة الليل في شوارع صمدية. حسنًا فعلت بارتدائها سروالًا يستر مؤخّرتها على الأقل مع نسيانها المفتاح في الباب ونسيانها ارتداء حمالة صدرها حال خروجها. وعلى الرغم من أنه لم يكن ثمة نظام مناوبة للمُصلِحين فإنه كان يوجد نظام مناوبة لمصلحي الأقفال. طرَقَت الباب وأيقظت مُصلِحَ الأقفال النائم في عمق.

أعطت مِرجانُ آخر النقود التي في حقيبتها لمصلح الأقفال لتغيير قفل الباب. ليَكُن، ماذا بيدها لتفعل؟! اشتغل التلفاز... ربما أن الله رأى حالها؛ كم أن التلفاز هام لأُمّتي هذه، حتى إنها خرَجَت لتبحث عن مُصلِح دون الحصول على مفتاح الباب. وماذا لديها غير روح يابسة وتلفاز؟ هل أمطر عليها التلفاز من السماء. عملت الفتاة المسكينة في تنظيف الوَسَخ حتى المساء واشترته. وجعل التلفاز يعمل.

ليس انشقاق القمر لنصفين، ولا انشقاق البحر من المنتصف، ولا ظهور نبوءات النبي يوسف... كان عمل التلفاز من تلقاء نفسه أكبرَ مُعجزةٍ بالنسبة لمِرجان. أغلقت الباب بالمفتاح الجديد وجلست أمام التلفاز. الحمد لك يا ربي. الأخبار المسائية في التلفاز، والمتخصّصون في كل مجال وأصدقاؤها من المشاهير... حضر كل أقارب مِرجان بلحمهم وشحمهم. كم كانت سعيدة بهذا. كات! اسودّ التلفاز من جديد.

تلك الليلة... حين انتقلت مِرجان إلى تلك العمارة في البداية كانت نافذة بيتها أعلى قليلًا، في ذلك الوقت كان بوسعها رؤية الأطفال بكامل قاماتهم يلعبون من مكان جلوسها، كما كانت باستطاعتها رؤية اليافعين الذين يمرُّون من الشارع حتى خصرهم. حتى إن الشمس كانت تدخل إلى البيت وكانت تغضب من إيقاف سيارة

أمام النافذة وقطعها للضوء عليها، حتى إنها علّقت لمدة لافتة مكتوب عليها «لا توقف سيارتك هنا رجاءً!»... ثم باتت البلدية تسفلت الطريق كل عام؛ فارتفع الرصيف أمام النافذة، وسُوِّي مكان دخول الشمس بالخرسانة.

تلك الليلة مرَّ من أمام نافذة مِرجان التي لا تتعدّى الثلاثين سنتيمترًا قطّة ومقشّة كانِس العشب وزوج حذاء أصفر وجاروف مستطيل. لو كانت تسكن الدور الرابع أو الخامس ولم يكن لديها تلفاز ستنظر من النافذة على المارّين من الطريق وتلتهي بهم. أي إنه حتى رؤية الكنّاسين الذين يبدؤون عملهم في الشارع مع أضواء الصباح الأولى متعلّقة بالمال.

أصبحت مِرجان هانم تذهب مرارًا وتكرارًا إلى جامع سمبل أفندي، وإن تساءلتم لماذا؛ فلأنها لا يمكنها الرقاد بلا تلفاز.

تظل تدور حتى الصباح... وبينما هي خارجة من البيت للبحث عن مصلح للتلفاز بعينين غائرتين من قلّة النوم... لم تنسَ أخذ مفتاحها معها هذه المرة... اللعنة! لقد غيَّرَت القفل؛ إن عاد زوجها إلى البيت الآن لن يستطيع بمفتاحه فتح التلفاز؛ عفوًا الباب. يا إلهي، ساعِد مِرجان! فلم يعُد لديها الآن أحد غير التلفاز.

لم تذهب مِرجان إلى مُصلِح أو غيره؛ بل ذهبت مباشرة إلى متجر للأجهزة الكهربائية لتشتري تلفازًا. كيف يحدث هذا؟ هل يخرب تلفاز قبل انتهاء أقساطه على الأقل؟! لا مشكلة. الضمان على التلفاز ما زال ساريًا. أوه، الحمد لله!... سيتم تصليحه خلال عشرين يوم عمل على الأكثر ويأتيك. عشرون يوم عمل؟! أولئك المصلحون كم يومًا يعملون في الأسبوع؟ أيام العمل فقط. عشرون يوم عمل... زِد عليهم إجازات الأسبوع. شهرا! شهر بلا تلفاز... وإن أخذته إلى مُصلِح؟ إن فتحه مفكّ خارج الخدمة فسيخرج من الضمان. قالت مِرجان: «سأفكّر»، وخرجت من المتجر.

إن خرج التلفاز من الضمان... ستدفع نقودًا للمُصلِح كلما خرب؟! لتنتظر شهر. بينما هي عائدة إلى البيت مرّت أمام المقهى، وكانت الأخبار تذاع على التلفاز المعلق في الحائط، ومرت أمام الحلاق، وكانت الكليبات تذاع على التلفاز الموضوع على الطاولة، ثم أمام البقال، وكان برنامج التزويج يذاع على التلفاز القابع فوق الرفّ. يا

الله، كم عدد التلفازات في البلد؟!

دخلت إلى البيت. البيت بلا تلفاز كأنه بيت خرجت منه جنازة. لا، لا... حتى في بيوت الجنازات هناك أشياء بالتأكيد تُضحِكهم فلا يستطيعون كبح أنفسهم. لم يقولوا عبثًا «بيت الموت بيت ضحك». يا ربي، ماذا ينقص مِرجان عن النساء اللاتي يدخلن بيوتهنّ فيفتحن تلفازاتهن ويستلقين مشاهدينها...

دارت في البيت مرة واثنتين. ضغطت زرّ التلفاز. لا، لا يعمل. لو كان في البيت رجل لاهتمّ بمثل هذه الأعمال؛ ومع العلم أن زوجها لم يكن سيركض وراء أي مُصلِح لأنه لا يشبه أيًا من الرجال في التلفاز، إلا أنه... أيًا ما يكن، على الأقل كانا سيتشاجران لأنه لم يسعَ لتصليح التلفاز. كان سيوجد صوت في البيت يملأ فراغ التلفاز.

مثل توركان شوراي في فيلم العروس سلطان... عندما يموت زوجها يتم تزويجها بالتلفاز بدلًا عنه، وتعتني به أشدّ العناية، وفي أهم لحظة تحتاج فيها له يقول لها: «لا فائدة مني». إن أخذت التلفاز للمُصلِح سيخرج من الضمان، فهل تمتلك هي ضمانًا للغد؟! إنها حياة محفوفة بالموت... يا تُرى كم ليرة سيطلب هذا المصلح؟ آخر ما لديها من نقود أعطتها لمصلح الأقفال؟

حسنًا.

دخلت مِرجان حجرتها، وأخرجت طقم البلوزة الحمراء من دولابها فارتدته وأطلقت شعرها في الهواء.

ألا يقولون دومًا: عندما يرى الرجال امرأةً عاجزة يريدون أن يكونوا أبطالًا ويفعلون كلّ ما يتوجّب فِعلُه لحل مشكلتها؛ لكن قسم النساء الذي يستطيع عمل كل شيء بنفسه لا تكون نهايته طيبة...انظروا لمِرجان، كانت تُعيل البيت، وماذا حدث؟ فتح زوجها الباب وذهب. كان الرجل مُحِقًا في هذا. فلم تدع له مِرجان أي عمل يشعر فيه أنه بطل. ربما لو كانت جلست في البيت مثل الهانم وأصرّت على زوجها ليجد حلًا، أيًا كان؛ لكان الرجل اضطرّ للعثور على عمل...

نعم. ستخبر مِرجان عامل التصليح عن مدى حزنها بسبب تعطُّل التلفزيون، وستدمع عيناها بحزن إذا لزم الأمر... هل ستكون عيناها الحزينتان أكثر وضوحًا إذا وضَعَت الماسكارا؟ حسنًا. وضعت مِرجان المكياج أيضًا. كان ستخبره عن الثواب العظيم الذي سيحصل عليه مَن يصلح التلفاز، وستتدلَّل عليه دون تجاوُزٍ لو لزم... ستفعل ذلك. وسيُصلح هذا التلفزيون بأية طريقة.

ردَّ المصلح على مِرجان دون حتى أن يرفع رأسه، لا يمكنه أن يقول شيئًا قبل رؤية التلفاز، أجرة المواصلات 50 ليرة، وإن كانت الشاشة مُعطَّلة فستتكلَّف 150 تقريبًا، ألا يمكنك التخفيض قليلًا؛ فالحياة لوحدي في البيت دون تلفاز صعبة للغاية. التخفيض قليلًا؟! ليكن 120. غير أنني لا أستطيع الجزم بشيء قبل رؤيته. خرجت مِرجان. لم يكن معها أية نقود...

ذهبت مِرجان إلى جامع سمبل أفندي. روحي فداء لك يا ربي، ساعدني! كلُّ ما طلَبته منك مِرجان... لم يعُد زوجها ولم يكن لها طفل. ماذا تريد منها يا الله؟ لم يعُد لديها في هذه الحياة غير تلفاز، كانت ستشاهده وتنام، ليكن صوتًا في البيت. ليس لدى مِرجان أحد غير التلفاز. وقد رضيت بقدرها هذا ولم تعصِك... إنها تبكي يا الله، رجاء، ليُصلَح التلفاز من نفسه. فتحت مِرجان يديها للدعاء، وبينما ترفعها للأعلى بقيت تنظر في أصابعها، وبعد نصف الساعة كانت عند الصائغ. باعت خاتم زواجها. اللهم لا تمتحِن أحدًا بالتلفاز.

أصبحت مِرجان هانم لا تخرج من البيت إلا في أوقات العمل، ليس لأنه لم يمكنها النجاح في تخصيص وقت لنفسها في الحياة الاجتماعية؛ بل لأنها لم تجد ما تفعله في الخارج. وزوجها... ماذا لو جاء. لا أحد يغلق باب العمارة على أية حال، وحتى لو كان مُغلَقًا؛ فالمفتاح هو نفسه. وإن نزل زوجها وحاول بمفتاحه فَتْحَ باب الشقة، ولم يستطع فتحه، عندها سيظنُّ أن مِرجان قد غيَّرت القفل؛ فقط لئلَّا يتمكَّن من الدخول. أليس صحيحًا أنها امرأة طلبت من زوجها أن يذهب إذا شاء، وعلى الرغم من أنه تجاهل كبرياءه وعاد إلى المنزل، فسينهار جزّاء كل هذا ويذهب راكلًا الباب، على ألَّا يعود مرة أخرى أبدًا.

كانت مرجان تجلس مثل الخشبة متربِّعةً على الكرسي وعيناها على النافذة تترقَّب زوجها. حتى إنها تمنَّت لو أن لبيتها شرفة مثل البيوت... كانت ستضع مسندًا في الشرفة وتنتظر زوجها محتسية الشاي كما تنتظر انتهاء الإعلان وبداية المسلسل.

لا، لماذا تطردين زوجك دون أن تنتبهي إلى أن منزلك في البدروم؟ ياااا... هذا ما جرى يا مِرجان هانم. مَن غلبه قضاء الحاجة على غير استعداد سيفتِّش عن الحجارة. إذا وجد زوجها امرأة أخرى، وإذا حملت المرأة لا سمح الله... لا، لا مستحيل. أوَّلًا، مَن ستكون في حاجة لزوجها؟ لكنها كانت في حاجة الرجل ذات وقت، لهذا لا بُدَّ أنه وجد بلهاء أخرى الآن.

كانت مِرجان نادمة، وكانت ستعتذر من زوجها ما أن تراه، بغَضِّ النظر إن كان على حقٍّ أو خاطئًا. لم يكن هناك مكان يتردد عليه زوجها بشكل منتظم بحيث تذهب وتسأل عنه. ماذا لو التقيا في الطريق أو شيء من هذا... لا، إنها لا تستطيع الخروج والبحث عن زوجها في الشوارع. ماذا لو عاد الرجل إلى البيت في ذلك الوقت... ماذا لو جاء ولم يتمكن من فتح الباب فركله بغضب...

إن مِرجان نادمة، ولكن لمن ستعتذر؟ لا وجود له. لن يصدر عفو عام، وليس هناك تشريع للندم، ولا يسري على التوبة.

يا إلهي، اضحك في وجه مِرجان. إنها نادمة جدًّا. يا الله، ماذا على مرجان أن تفعل حتى يعود زوجها؟

لقد بذلت مرجان أقصى جهد للاستسلام. إن استطاعت الاستسلام سينتهي كل هذا. ذهابها للبيت ركضًا فور خروجها من العمل لاحتمال عودة زوجها، ومحاولتها مواساة نفسها بالتظاهر بأنها تخلَّت عن الانتظار، واحتفاظها على الدوام بمكوِّنات الحلوى في البيت؛ تحسُّبًا... سينتهي كل هذا.

بَيْدَ أن الأمل أمر جيد، إنه صوت داخل الإنسان؛ فالشخص اليائس مثل البيت بلا تلفاز. ماذا سيفعل بدون أمل؟ بماذا سينشغل؟ بمَ سيفكر وهو يحاول النوم مع صوت التلفزيون ليلًا؟ لو أنها لا تتخيل زوجها بجانبها عندما تستيقظ وحيدة على الأريكة

في الصباح، أو لو أنها لا تفكر في يد حيدر الصغيرة... لو أنها لا تتخيل أثناء سيرها في الطريق طفلها يدور ويبتسم سائرًا خلفها بقليل بطقطقة في بعض الأحيان... إن لم تكن تدعو الله خلال تخيُّلاتها ليرى مدى معاناتها في وقتها؛ فكيف كانت ستجر روحها المتعبة عائدة إلى البيت وتُعقِّب «آمين» عند بابه؟

وكما كانت المقشة العشبية تكنس الأرض قبل مسح السلم خلال تنظيفها للعمارة؛ كان الأمل هو اليد التي تسحب مرجان من مكان إلى آخر لتتحرر ممَّا يترسَّب في أعماقها.

ظلت مرجان هانم تذهب مرارًا وتكرارًا إلى مسجد سمبل أفندي، وإذا تساءلتم عن السبب: فإنها حتى وإن كانت تنام مع التلفاز؛ لكنها لن تستطيع النهوض من السرير دون أمل.

لا، لم تكن مرجان تنوي الاستسلام. فكما جرَّبَت تشغيل التلفاز من جديد بعد أن انتظرت حتى استراح بعض الوقت بعد انطفائه، فستحاول الآن فتح يديها مرة أخرى دون أن تُكثِر على الله. الأمل من الله؟ لا، لا ينقطع. لكن عليها أن تُري الله كم أنها ترغب في ذلك من كل قلبها. ظلت تفكر. كيف لم يخطر ذلك على بالها حتى الآن... ستقطع نَذْرًا! لن يردَّ الله مِرجان بعد الآن. ذهبت إلى جامع سمبل أفندي، ونذرت أنها إذا عاد زوجها ستذبح ديكًا وتوزِّعه على الفقراء، ثم عادت مِرجان إلى المنزل هادئة النفس، فسيعود زوجها بالطبع.

نظَّفَت المنزل جيدًا، وأزالت شعيراتها بالشمع. تأكَّدَت من وجود مكوِّنات الحلوى. غسلت طقم بلوزتها وتنورتها الحمراء وكوته وعلَّقته حتى إذا رنَّ جرس الباب ووصل زوجها فجأة، ارتدت ملابسها على الفور. من المؤكد أن سعادة سمبل أفندي العظيم والسلطانتين والخطاط عثمان لن يردُّوا مرجان على أي حال.

لا... لا.

هذه المرة سينظر الله لأمَتِه مِرجان. كانت مرجان تنتظر زوجها ذلك المساء لربما يأتي أو لا؛ كأنهما متواعدان وقد تأخَّر، تنظر في ساعتها بين الفينة والأخرى، وتنظر

من النافذة على أمل أن ترى حذاءً مألوفًا، ثم تفتح باب البيت وتنصت لعل هناك صوت أقدام تنزل سلم العمارة.

لا بُدَّ أنه طرأ لزوجها عملٌ تلك الليلة... وفي الليلة التالية... مَن يدري أين ظلَّ عالقًا. كانت تنتظره في المساء... لماذا لا يأتي هذا الرجل إلا في المساء، كما لو أن لديه عملًا بدوام... أليس هذا بيته، فليأتِ إن شاء في المساء أو في النهار.

عجبًا! هل أتى زوجها أثناء النهار بعدما ذهبت إلى العمل، ولكن عندما وجد الباب كالجدار، ركله ركلة؟... ينزل زوجها من دَرَج عمارتها ويحاول فتح الباب بمفتاحه بينما تنظف مرجان سلالم العمارات الأخرى؛ وعندما لم يستطع فتحه يغضب ويعود أدراجه. كما تعلمون، يوجد في بعض العمارات كاميرات تصوير، لو أنها موجودة في عمارتها فتشاهد مرجان الشاشة حين تعود إلى البيت في المساء لترى ما إذا كان زوجها قد جاء أم لا. حسنًا، ماذا يحدث إذا جاء الرجل وذهب ورأته مرجان، فقد ركل الرجل الباب وغادر، ولن يكون في مزاجٍ يسمح له بالالتفات إلى الكاميرا وقول أ»نا ذاهب إلى هذا المكان يا مِرجان... لاقيني هناك»... سيذهب وحسب.

وفي الأسبوع التالي، طلبت مرجان إذنًا من صاحب إحدى العمارات التي تمسحها قائلةً: «هل من الممكن ألَّا آتي غدًا؟ ولدنا حيدر -حمى الله أبناءك- لديه اجتماع لأولياء الأمور...».

انسابت عبارة الجزيرة، ركب الكل مع أطفالهم... وماذا نفعل؛ لم يرزق الله مرجان أطفالًا، صعدت مرجان إلى سطح العبارة وجلست متكئةً بذراعها على الحديد، تطلَّعت إلى طيور النورس الطائرة في السماء؛ كيف رفرفت بأجنحتها مرة أو اثنتين ثم داومت تحليقها في الهواء مع الرياح التي رفعتها... هكذا يكافئ الله المُجدّين. ومرجان أيضًا تجِدُّ، وما دام أنها تسعى فبالتأكيد سيمكّنها الله بعد مدة من التحليق بأجنحتها مع رياح ترفعها.

كانت هناك امرأة وطفلها يجلسان أمامها، وكان الطفل صبيًا شَعرُه مُجعّد يبلغ من العمر ثلاث أو أربع سنوات، ينظر إلى مرجان بمكر ويهرب بنظراته عندما تتلاقى عيناه بعينيها. **نفسي فداء نظراتك! كما أنه أسمر...** أمَا كانت مرجان أحيانًا تتخيّل

صبيًا يسير إلى جوارها... صبي مثل هذا كقطرة العسل المصفَّاة من الخروب يمسك بيدها ويسير إلى جوارها... يا ثُرى، إن تحدَّثَت مرجان مع الصبي وقبَّلته مرة واحدة هل ستغضب والدته؟ ولِمَ ستغضب يا عزيزي؟! لن تفعل مرجان شيئًا سيِّئًا بالتحدث معه؛ بل ربما ستشعر المرأة بالفخر كونها أنجبت طفلًا جميلًا، يُعيد الناظر النظر إليه مرة أخرى ولا يسعه إلا قول ما شاء الله... التفتت مرجان إلى والدة الطفل وقالت:

- ما شاء الله.

شكرتها المرأة وقبَّلَت طفلها، نظر الصبي إلى مرجان بمرح واحتضن أمه، أشارت المرأة بإصبعها له على النوارس:

- انظر، يا لَجمال تحليقها!

آهٍ! لو كان هذا الصبي ابنًا لمرجان؛ ما كانت ستجعله يشاهد الطيور المحلِّقة هكذا عن بُعد؛ بل كانتِ ستشتري له سيميتًا وتعطيه ليقذفه لها.

نظر الصبي لمرجان فغمزت له فاستدار الصبي بخجلٍ واحتضن أمه ثانيةً.

- ما اسمك؟

ردَّت أمُّه:

- تسأل الخالة عن اسمك، هيَّا، قُلْ!

هزَّ الطفل كتفيه. ما دام أن الخالة نصف أمٍّ فربما تعانق مرجان هذا الصبيّ مرة واحدة. قالت:

- إنه جميل جدًا، حفظه الله لأبيه وأمه.

كان عليها أن تحتفظ بعلاقة جيدة مع أم الصبي.

رَنَت إلى الصبي مرة أو اثنتين، لم ينتبه لها على الإطلاق. آهٍ لو تتحدث معه! آهٍ لو تعانقه! اشترت سيميتًا من البائع على ظهر العَبَّارة، ثم بدأت تقطِّعه قطعًا قطعًا وتلقيه للنوارس بذراعيها بحركات مبالِغة لجذب انتباه الصبي. التفت إليها الصبي

باهتمام، فألقت مرجان بعدة قطع أخرى كما لو أنها لا تلاحظه. أخذ الصبي ينظر إلى النوارس وإلى قطع السيميت المتطايرة من يد مرجان ويبتسم حين تلتقطها.

- تعال لتلقِها معًا؛ لو سمحت والدتك؟

قالت والدته:

- هيا، اذهب مع خالتك...

ذهب الصبي إلى جوار مرجان ومدّ لها يده. لم يتدلّل الصبي وأمسك بيد مرجان فنزل من مقعده. يا ربي، كيف خلقت هذه اليد الصغيرة للغاية؟ فبالنسبة لمرجان لم تكن سفينة نوح، ولا إنقاذ النبي يوسف من البئر، ولا نزول كبش من السماء قربانًا بدلًا من سيدنا إسماعيل... لو كانت هناك معجزة فهي يدا هذا الصبي السمراوان الصغيرتان هاتان... ذهبا معًا إلى مقدمة العبارة عند القضبان.

- لا تتّكِئ على القضبان، ستسقط. تراجَع خطوة إلى الوراء، هيا...

قطعت مرجان قطعة من السيميت وأعطتها للصبي، وبينما كانت تلقي بقطعة بنفسها:

- هَلُمَّ، افعَلْ كما أفعل، بعيدًا... هووب... أمسَكَها النورس؟

لا الشمس ولا القمر ولا النجوم... إن كان هناك شيء لامع في الحياة فهو عينا هذا الصبي... سقطت قطعة السيميت التي ألقى بها الطفل إلى الشرفة السفلية، فقطعت مرجان قطعة أخرى وأعطتها له:

- انظر، هكذا ستلقيها بعيدًا، بعيدًا جدًّا...

قذف الصبي بالسيميت فأمسكه النورس في الهواء ثم استأنف طيرانه. ابتسم الصبي. أووووي... يا لتلك الأسنان التي كحبّات الأرز المتلألئ!. كان الصبي مستمتعًا بجوار مرجان، لدرجة أنه لم يلتفت حتى لينظر أين والدته. لا ينتهي الأمر بالولادة، فإن أصبحت المرأة أمًّا ولم تستطع ربط طفلها بها... كانت مرجان تعرف كيف تتعامل مع الأطفال... يا إلهي، لو تمنح مرجان طفلًا...

قطعت مرجان قطعة سيميت وأكلتها. ومدّت قطعة للصبي فنظر إلى والدته إن كانت ستغضب إن أكل طعامًا يقدّمه له الغرباء. لم تنتبه المرأة إليه. فقالت مرجان:

- هيّا، كُل أنت الآخر!

أكل الصبي السيميت. فقطعت مرجان نصف السيميت التي معها وأعطته له.

- هيا نلقي مرة أخرى! اقطع أنت أيضًا قطعة كهذه...

يا لها من ضحكة... إن قبّلَت مرجان الصبي مرة واحدة؛ هل ستغضب والدته. رموشه... مثل جذور الأشجار المتمسّكة بالأرض... وعيناه كحيلتان واسعتان... من الواضح أنه سيحظى بجمال جذّاب عندما يكبر. أجَذّاب فقط؟ بل آسِرٌ. إن مُقلتَي عينيه ككُرتَي فلفل أسود... يا تُرى من أين يكون؟ في الواقع، كان اسم حيدر ينطبق عليه.

- ما اسمك؟

- إيفه.

نظرت مرجان إلى والدة الطفل باستنكار. **انظروا إلى الاسم الذي أطلقته على الصبي...**

- اسمي مرجان، أخبرني ما هو؟

- مرجان.

- فديت خالقك...

نظرت مرجان لترى إذا كانت والدة الطفلة تشاهدها، لتلتقط صورة لنفسها بالهاتف...

- هل أقبّلُكَ مرة واحدة، يا إيفه؟

ابتسم إيفه، فقبّلَته مرجان. أوه، احتضنته أيضًا.

- قبّلني أيضًا!

قبل الطفل مرجان.

- قبّلني من هذا الجانب أيضًا يا إيفه...

شمّت مرجان شعر الطفل؛ كالمسك. ألقت نظرة على والدة إيفه... لو كان طفلها، لَمَا سمحت له أبدًا برمي السيميت لطيور النورس برفقة امرأة أخرى، ولا لتقبيل أو معانقة أحد لا تعرفه قطّ. يمكن أن يكون لصًا أو سارقًا أو منحرفًا؟! ليس هذا مكتوبًا على جبين أحد...

- انظر، سترميه هكذا، هيا ارمِهِ لمسافة أبعد... هوب، أمسكها النورس. إيفه، هل بإمكاني معانقتك مرة واحدة؟

يا الله، ما أكثر الأمهات في العالم... احتضنت مرجان إيفه. بدأ الركاب الذين لم يهبطوا في الجُزُر الأولى القيامَ، وسلّمَت مرجان إيفه إلى والدته ونزلت في جزيرة الأميرات. يا الله، ما أكثر الأطفال في البلد!

لم تكن مرجان قد ذهبت من قبل أبدًا، لكنها سمعت بوجود كنيسة آيا يورجي في جزيرة الأميرات. إذا تسلّقتَ التل المؤدي إلى هذه الكنيسة ووصلتَ إليها دون أن تقطع طوال الطريق الحبل الذي ربطتَه بشجرة، وكتبتَ أمنيتك ووضعتها في الصندوق، فإن أمنيتك ستتحقّق بالتأكيد. فما دام أن الله إله الجميع، وما دام أن الجميع عبادٌ لله، فهل هناك علامة تميّز بين عبد وعبد؟ لتمد الأم فاطمة والأم مريم أيديهما لمرجان.

كانت الجزيرة جميلة. أوه، يا لنسيمها عليل! كيف هم النساء اللاتي يعِشن في هذه الجزيرة ويستمتعن، أمان أمان! ليعطِ الله للجميع بمقدار نياتهم. ليست ثمة فائدة من تقديم أمنيات أخرى الآن وتشتيت الانتباه. لم تكن تريد شيئًا غير عودة زوجها. كان يمكنها أن تجلس في حديقة الشاي على الساحل وتشرب الشاي؛ لكن الوقت لم يكن مناسبًا لتُخصّص وقتًا لنفسها. دخلت البقالة وسألت: «حتى متى تكون الكنيسة مفتوحة؟»، فردّ البقّال:

- ستغلق بعد قليل.

- هل الطريق طويل جدًا؟

- يستغرق ساعةً مشيًا؛ لكن توجد حناطير هناك.

ذهبت مرجان إلى موقف الحناطير. كانت الخيول تقف صفوفًا صفوفًا، يبدو عليها السأم، كما كانت مرجان في الأيام التي قطعت فيها الأمل من زوجها... لا، لا... ليس الآن الوقت المناسب لتنظر حولها وتتأمل. سارت مباشرة إلى سائق العربة:

- هل تذهب إلى الكنيسة؟

- أذهب حتى رأس التل.

هذا الأفضل على أي حال، تصعد مرجان بعدها إلى قمة التل سيرًا وتربط حبلًا بالشجرة.

- بِكَم؟

- 35.

- 35...

بدا لها أكثر من اللازم. مقابل هذا المبلغ، تمسح مرجان سلالم عمارة لمدة أسبوعين.

- حسنًا، ألا يمكن تخفيض المبلغ؟ أنا في عَجَلةٍ من أمري...

قال سائق الحنطور: «إنها تعريفة ثابتة». ستسير وتسير، لكن مهما كانت السرعة التي ستسير بها، فهل سيمكنها السير أسرع من الحصان والوصول إلى الكنيسة قبل أن تغلق؟ إنه اسم على مُسمًّى. «فرس». قالت للفتاتين اللتين أتيتا لركوب الحنطور «هل نركب معًا؟». «لتدفع كلٌّ منكما عشرة ليرات وأنا سأكمل الباقي». انتبه سائق الحنطور لها وتذمّر قائلًا:

- لكننا لا نسيِّرها بنظام سيارة الأجرة!

آهِ، لو أتت مرجان إلى هنا مع صديقتيها... أو صديقة واحدة ستكفي. لا يفرق سائق الحنطور الآتين معًا. ركبت الفتاتان العربة الأمامية وغادرتا... كانت الساعة تتقدم. فتحت مرجان حقيبتها، وحسبت أموالها، وقالت بينما تركب الحنطور:

- أمان! دعنا نذهب بسرعة كبيرة يا أخي! فلديّ عمل عاجل على التل.

طق طق طق طق... بيوت منفصلة خلفها الغابة، وأمامها البحر... طق طق طق طق... أزهرت الورود على نوافذ كل بيت... إلهي، يا مَن خلقت هؤلاء بألوان مختلفة ومنحت كلًّا منهن شكلًا مميزًا، يا مَن وهبتَ الحياة للطبيعة بأكملها، ألا يمكن أن تُرجع زوج مرجان لها؟ أليس بقولك «كُن» يكون كل شيء... قُلْ «كُن»؛ لعلَّ روح مرجان تهدأ يا الله.

كانت مرجان تشاهد في الأفلام؛ دائمًا ما يأتي العشاق إلى الجزيرة، آهِ، تفوح رائحة عطرا. لم تشعر مرجان وهي في الحنطور، بأنها مرجان؛ بل عطر إيسندي الذاهبة إلى الجزيرة مع فردي طيفور. حتى إنها ركبت الحنطور دون أن تلاحظ انفلات حبل سُترتها مثل عطر إيسندي، فيركض فردي والحبل الممسك بطرفه في يده ويصعد حتى أعلى التل؛ الحنطور في الأمام، وهو في الخلف، وفي نهاية الطريق يعطي اللَّفَّة التي تكوَّنَت من ظهر السترة الذي انفكَّ تمامًا إلى عطر إيسندي. ماذا كان يقول فردي طيفور في أغنية ذلك الفيلم: «أنا مفتون بوجودك، مجنون بغيابك...». يا إلهي، مرجان أيضًا بوجود زوجها... ليُعِذ إذًا.

توقف الحنطور، وقالت مرجان وهي تنزل:

- أين توجد الكنيسة؟

- ستصعدين هذا الطريق إلى أعلى.

وصلت مرجان إلى أعلى التل. فأخرجت من حقيبتها بَكَرة الحبل الوردي التي أحضرتها من المنزل. وبعد أن قالت «باسم الله»، وتمنَّت عودة زوجها، ربَطَت طرف الحبل في جذع شجرة، وبدأت في سيرها فاكَّةً حبل البكرة، ولكنها اضطرَّت للعودة إلى الوراء بعد عدة خطوات. إذا تساءلتم لماذا؟! فبغَضِّ النظر عن سير مرجان بدقَّة،

إذ كان حبل البكرة ينفكّ من جهة، ومن جهة أخرى كان يتمدد وينفلت حين تخطو خطوة، فتعود مرجان وتربط الحبل في الشجرة مرة أخرى. لم تدّخر وقتًا، وكانت تتوقف قبل كل خطوة، وتفكّ جزءًا من البكرة، وتمدُّ قدمها بحسبه... كان عليها أن تصل إلى قمة التل قبل أن تغلق الكنيسة. خطت مرجان خطوة أخرى. فانقطع الحبل ثانية، وعادت أدراجها. حتى فردي طيفور الذي كان يركض خلف الحنطور الذي كان تركبه عطر إيسندي، والذي ارتبط بحب حياته عن طريق خيط سترة، لم يقطع الخيط على طول الطريق... أخذت مرجان دبوس الشَّعر من شعرها وغرزته في البكرة. وكلما كانت تمشي والدبوس في يدها، كانت البكرة تدور، والحبل ينفك كأنه يتحرّر من البكرة على طول الطريق دون أن ينقطع. وفي هذه الأثناء، حدّقت امرأة تمر بجوار مرجان بدقة وقالت:

- عذرًا. ماذا تفعلين بهذا الحبل؟

لم ترد مرجان، وبينما كانت تخطو الخطوة التالية تاليةً البسملة... سألتها المرأة ثانية:

- انتابني الفضول، لِمَ هذا الحبل؟

سأربط زوجي بي بواسطة هذا الحبل! يا إلهي، ما أكثر النساء اللاتي لا يحملن همًّا في العالم!. ربما أتت هذه المرأة إلى أبواب الكنيسة سائحة وليست جرّاء مشكلة؛ أم أنها لا تعرف حكمة هذه الكنيسة، وسبب امتداد هذا الحبل على الطريق... حين يواجه الإنسان مشكلة، يتعلم كل الحلول. واصَلَت مرجان سيرها بسرعة دون أن تجيب المرأة. بسم الله الرحمن الرحيم. لسنوات وهي تتمنى تعليق السَّبَت بحبل من الشرفة، ولكن كان النصيب أن تعلّقه ليعود زوجها. يا إلهي، يا لحبال هذه الأمّة!... يا إلهي، هل ينبغي لهم كل ذلك. ربط الطرف الآخر من الحبل بشجرة والوصول إلى الكنيسة. أمان أمان! ليحقّق الله لهم جميعًا ما تمنوا. وصلت إلى الكنيسة وطرف الحبل الآخر متصل بالشجرة. أوه! حمدًا لله. وصلت دون أن ينقطع، ودخلت إلى حديقة الكنيسة، ثم خرجت ثانية. لتدخل قائلة: «باسم الله». فمع أنها تعني «أبدأ باسم الله»؛ إلا أنها كانت تُقال عند دخول المسجد. أتساءل: ماذا يقال عند دخول

الكنيسة؟ دخلت إلى حديقة الكنيسة منتبهةً ألّا تقول «باسم الله»، أخذت أحد الشيلان المتدلية من مسمار مجاور للباب ولفّته حول رأسها. ثم دخلت الكنيسة. أخرجت من حقيبتها القلم والورقة التي أعدّتها من قبل. وسارت إلى الصندوق الشفاف الذي تراكمت فيه الأمنيات. هل يجب أن تكتب الآن «أتمنى عودة زوجي»؟، أم عليها إضافة «وأن يصبح لنا ابن» أسفلها؟ ليكن لها ولو ابن واحد فقط، وهي على استعداد أن تسميه إيفه. لا فائدة من إكثار الأمنيات وإرباك الأولياء. كتبت مرجان في الورقة «ليكن لي ابن»، وألقتها في الصندوق. معاذ الله، أو إن أصبحت مريم المعلّقة صورتها على الجدار أمًّا؛ فهل ستنجب مرجان طفلًا قبل عودة زوجها؟! إن كانت الرغبات المقدّمة هنا تُقبَل، أي أن مرجان ستنجب طفلًا، فلا بُدّ من عودة زوجها أوّلًا.

همّت بإشعال شمعة. لا اعتراض على قدر الله على أي حال. ما دام أن الله منحها الفرصة للوصولِ إلى هنا، فإن مرجان ستشعل له شعلة، وليس شمعة. كُتِب بجوار المواضع التي اصطفّت فيها الشموع «يمكنك التبرع وتقديم ما تريد». وضعت ليرة في الصندوق وعادت أدراجها بينما كانت تتجه إلى المذبح والشمعة في يدها. هل زوجها رجل يساوي ليرة واحدة؟! لا بُدّ أن يرى الله والأولياء المعلّقة صورهم على تلك الجدران مدى رغبة مرجان في عودة زوجها. وضعت مرجان خمس ليرات أخرى في الصندوق دون أسف على نقودها التي مسحت في مقابلها ثلاثة أدوار، تقدّمت إلى المذبح والشمعة في يدها. فنظرت إلى الأم مريم وقالت: **أيتها الأم مريم، لقد افتروا عليك. ومنحك الله طفلًا معجزة منه وخلقه من العدم... أيتها الأم مريم! لا تسحبي يدك عني. أتمنى أن يعود زوجي، وأن يرزقني الله بطفل.**

ما دام يتم قبول الأمنيات التي تُقدّم في كنيسة آيا يورغي، فسيعود زوجها اليوم أو غدًا. سيعود وسيكون لديهما أطفال. لذا واتتها الرغبة في شرب الشاي على التل المُطِلّ على المنظر؛ لكنها تراجعت. ماذا لو عاد زوجها إلى المنزل بينما هي ملتهية هنا وبقي عند الباب... بينما كانت مرجان تهبط إلى أسفل التل راكضة، ظهرت لافتة: «لا تربط الحبال بالأشجار رجاءً. إدارة الكنيسة».

قامت مرجان باستخراج نسخة احتياطية من مفتاح منزلها، لقد شاهَدَت في الأفلام على التلفاز أنهم دائمًا ما يضعون المفتاح تحت الدواسة أمام الباب، فإذا لم يكن مع الشخص الذي جاء المفتاح؛ يأخذه من تحتها، ذهبت مرجان بسرعة إلى السوق الياباني الأصلي، لشراء دواسة...

دائمًا ما يعود السوق الياباني الأصلي على مرجان بالنفع، كانت تذهب إلى متاجره هذه منذ أن كان كل شيء بالملايين، ثم عندما أُزيل الصِّفر من الليرة؛ أصبح كل شيء بالليرة، وعندما لم يبقَ شيء يُباع بليرة واحدة؛ تغيَّرَت أسماء المحلات التجارية نفسها إلى المتجر المجاني، ثم إلى السوق الياباني على التوالي، وأخيرًا؛ عندما زاد عدد الأسواق اليابانية في صمدية، تمَّ تعليق لافتة السوق الياباني الأصلي على هذا المتجر للتأكيد على انتمائه.

شاهدت مرجان على شاشة التلفاز أن النساء يذهبن للتسوق كثيرًا لإلهاء أنفسهن، يتجوَّلن في مراكز التسوق؛ أنت في جواهر مول، وأنا في كانيون مول، حتى إنهن شوهِدنَ هناك مع عشاقهن الجدد.

شوهِدَت مرجان لعدة أشهر بمفردها في السوق الياباني الأصلي؛ إذ كانت تذهب لتسلية نفسها، ومع أنها كانت تدخل إليه أحيانًا فقط لإلقاء نظرة على البضائع، إلا أنه كان بشكل عام المكانَ الذي تذهب إليه ركضًا للشراء عندما تحتاج شيئًا على الفور، كل شيء موجود في السوق الياباني الأصلي، كانت مرجان تشتري منه دائمًا أحمر شفاهها والماسكارا ومكبس المرحاض والمقلاة غير القابلة للالتصاق وأكثر من عشرين جوربًا رقيقًا التي كانت ترتديها تحت طقم البلوزة والتنورة الحمراء عندما تخرج بين الناس كلها من هنا، الطابق الأول؛ تمَّ تخصيصه للأدوات المكتبية ومستحضرات التجميل والأواني الزجاجية، يا إلهي ماذا كان ينقص مرجان عمَّن يشترون طقم عشاء اثني عشر فردًا... الاثني عشر قريبًا الذين تستطيع مرجان إحصاءهم... علي، حسن، حسين، زين العابدين، محمد الباقر، جعفر الصادق، موسى الكاظم، علي الرضا، محمد التقي، علي النقي، حسن العسكري، محمد المهدي... الأئمة الاثني عشر، ألم تكن تطلب منهم العون في كل مرة تتعثر فيها؟!

إذا عاد زوجها، فأطقم العشاء لفردين تُباع أيضًا في السوق الياباني الأصلي، حتى إن هناك كؤوس البيض وعليها رسومات للأطفال وأطباق مُلوَّنة لتسلية الأطفال وقت تناولهم الطعام... وفي الطابق أعلاه شتى أنواع الألعاب... الدب القطيفة الذي يحتضنه الطفل أثناء نومه ليلًا، وعربته التي سيقودها نهارًا في المنزل، هاتف يووف يووف، وألعاب البازل، والباربي، وبيت باربي... كانت مرجان تحاول غالبًا عدم الصعود للطابق الأعلى.

كانت تشتري أشياء بسيطة من الطابق الأرضي لتدليل نفسها من وقت لآخر، تارة ملّاحة، وتارة كوب خزفي... أرخص شيء كان الملّاحة، اشترِ واحدة، اشترِ اثنتين، كَم مَلّاحة يمكن أن تكون في المنزل؟ كان الكوب الخزفي جيدًا، لون في المطبخ؛ علاوة على أنه عند شراء كوب خزفي يشعر المرء كما لو كان يختار شيئًا خاصًا به بالفعل، ويتساءل ما اللون والشكل الذي ينبغي أن يكون عليه؟ جميع الأكواب الخزفية المباعة هنا كانت تحمل إمَّا رموز الأبراج الفلكية أو شعارات عواصم العالم، كانت مرجان تشرب الماء في برج الدلو على سبيل المثال، وتحتسي شاي الصباح في برج إيفل، وتشرب قهوتها المسائية في نهر التايمز.

كان الأرخص والأكثر ممَّا «مهما اشتريت منه لا يكفيك» يباع في السوق الياباني الأصلي، إذ كان المكان المناسب لأولئك الذين يقبلون بأي شيء، ويأكلون الذرة بقلاحته والبطيخ بقشرته دون أن يصدروا صوتًا.

نزلت مرجان إلى الطابق الأرضي: مفكات براغي فيليبس، مفاتيح إنجليزية، هذه هي الأشياء التي تشتريها النساء اللاتي يقمن بدور الرجال في بيوتهن، عبرت سموم الفئران والأراجيح الشبكية والشوايات المصنَّفة جنبًا إلى جنب مع طعام طيور الحب(5)، وكذا أصبحت أمام الدواسات.

فرشت مرجان الدواسة أمام الباب ووضعت المفتاح الاحتياطي أسفلها، ثم ولجت البيت، ثم فتحت الباب ثانية وأخذت المفتاح، ووضعت هذه المرة المفتاح تحت الدواسة دون أن تهمل قول «باسم الله»، كان مكتوبًا على الدواسة «Welcome»، فقد تعمَّدَت شراء أكثرها أبَهة حتى يتم ملاحظتها؛ على الرغم من أن وضع المفتاح

تحت السجادة لم يكن من عاداتها مع زوجها، لكن... عندما يأتي زوجها -سيأتي إن شاء الله- ولا يستطيع فتح الباب بمفتاحه، سيلاحظ حينئذٍ الدواسة أمام الباب فيقول «ما هذه؟»، وينظر تحتها فيجد المفتاح...

سترى المرأة التي تأتي لمسح سلالم عمارة مرجان المفتاح عندما ترفع الدواسة لتمسح تحتها... عندما انتقلت لهذه العمارة وعلم مالِكُها عن عملها، أخبرها أنه يمكنها إذا أرادت مسح العمارة؛ إلا أنها لم توافق لئلّا تفقد المرأة مصدر رزقها... كما أنها لم تُرِد مسح العمارة التي تسكن فيها، ولأن مرجان حين مسح المرأة للعمارة تعمل بمسح العمارات الأخرى، فقد التقيا مرتين أو ثلاث مرات فقط، بدا أنها امرأة طيبة، ماذا ستفعل لو وجدت مفتاح مرجان... نعم نعم؛ ليظل المفتاح هنا.

وإذا لم يأتِ زوجها أو لم يستطع العثور على المفتاح، هل من الأفضل أن تكتب على الباب «تمّ تغيير القفل، المفتاح جديد تحت الدواسة»؟ إذن فالأمر أشبه بدعوة اللصوص... حسنًا، وماذا يوجد ليسرقه؟ تلفاز... ماذا ستفعل، تشتري آخر جديدًا وتبدأ في التقسيط، وأيضًا -لا سمح الله- لو رأى أحد الملاحظة على الباب فقام بعمل نسخة احتياطية للمفتاح في النهار ووضع المفتاح تحت الدواسة قبل مجيء مرجان ثم دخل في الليل بمفتاحه الخاص واقترب من مرجان... أين كان هذا الزوج؟ تركها في يد كلب متشرّد وغادر.

طلبت مرجان في الأسبوع التالي إذنًا من مدير عمارة أخرى، فالبنت الكبرى مريضة قليلًا، اسمها زليخة، أدام الله على ذويكم الصحة، كانت ستأخذها إلى المستشفى، وقد حدّدت موعدًا مع التأمين، لم يسأل مدير العمارة عمّا إذا كان قد دفع تأمينًا لها، أعطاها الإذن ما دام أن طفلتها مريضة...

ذلك اليوم بينما كانت مرجان -يا إلهي، لا ترجعها من أبوابك خالية الوفاض- ذاهبة إلى إريكلي بابا بيت الجمع، ظلّت تتطلّع بدهشة كأنها تزور بعد فترة طويلة الحيّ الذي غادرته وهي طفلة والمنطقة التي عاشت فيها لسنوات، لم تكن قدماها في سائر الأيام بينما هي في طريقها للعمل راكضة تجد الطريق؛ لكنها الآن لم تعُد في حاجة إلى فتح عينيها وأذنيها حتى، ظلّت مرجان تتطلّع بهذه الطريقة... واه يا أبي! ماذا

حدث لهذا المكان... على طول الطريق الذاهب من صمدية إلى يديكولا... تمّ بناء عمارة جديدة مكان بيت فاطمة، وانتقل المُلّاك الجدد له بالفعل، وتم تعليق الستائر وما شابه... كان بيت فاطمة جميلًا، كانت فاطمة أيضًا تذهب للمسح؛ لكن بيتها كان به شرفة، بالطبع فلو أن زوج المرأة يعمل... عندما كانت تجلس في الشرفة مع فاطمة كانتا تضحكان مثل فتاتين عزباوَين، وتحتسيان الشاي، وتقزقزان اللب حتى، وتغتابان زوجيهما وأصحاب الشقق في العمارات التي تقومان بمسحها.

اقتربت مرجان من العمارة الجديدة، كانت هناك كاميرا عند الباب وجهاز لإدخال رقم الأمن حتى، لم يعُد بوسع فاطمة الآن إلا بالكاد مسح سلم مكان بيتها القديم، وعلى بُعد مسافة قصيرة كانت هناك حفر لوضع الأساسات مكان منزل عائلة خديجة... وُضع أمامها حاجز، كانت خديجة مولَعة للغاية بزيارة أماكن النذر؛ رجاء الفلَاح لزوجها؛ فقد كان الرجل مدمنًا على الكحول هو الآخر.... ولأجل أن تأكل أيضًا قليلًا من الأرز باللحم مجانًا... كانت تذهب ومعها علبة زبادي كبيرة لتأخذ لأهل بيتها، ذهبت هي وخديجة إلى بيت الجمع إريكلي بابا عدّة مرات، وكانت مرجان تأخذ معها إلى البيت الحلاوة التي توزّع بعد الدعاء؛ إذ كان زوجها يشتهيها في المساء، كان من الأفضل لو لم تغادر خديجة! فزوج أحدهما كان مدمنًا على الكحول، والآخر مدمنًا للحشيش، وكانت الشقيقتان تلفّان على الأضرحة بالتوازي مع مصحّات الإدمان.

عندما يكون لديك صديق تحكي له، فالهمُّ حتى ولو كان سُمًّا، سينساب مثل قطرة عسل، كم كان ما مضى جميلًا! فحتى لو يكن لمرجان زوج ما كانت ستضطر إلى السير بمفردها في الشارع ولا أن تكون رفيقة للتلفاز في البيت، وحتى لو غادر زوجها المنزل مرة أخرى، واضطرت مرجان إلى تغيير قفل الباب؛ أما كانت إليف التي كانت تسكن هنا قديمًا ستأتي إلى بيتها للدردشة معها قليلًا إن لم يُهَدَّ بيتها وتذهب، كانت المرأة تبحث بالفعل عن مكان للهرب من حماتها، لكنها... لم تعد موجودة، وأولئك الذين انتقلوا إلى العمارات التي ارتفعت بدلًا من بيوتهم لم يكونوا ليجلسوا مع مرجان ولا ليتحدثوا معها أو يذهبوا معها إلى بيت الجمع.

كانت مرجان تستعيض عن غياب زوجها الذاهب بحضور صديقاتها... لكن مكانة فاطمة كانت تختلف عنهنّ جميعًا، كان لديها أربعة أطفال، أربعة! وأحيانًا عندما لا تجد مكانًا تتركهم فيه وهي ذاهبة للمسح كانت تطلب من مرجان أن تعتني بهم، لو كان لمرجان رفيقة أو صديقة الآن... ربما لم يكن غياب زوجها حتى سيزعجها كثيرًا، تجلسان وتتبادلان همومهما، وتفكّران سويًا في المكان الذي قد يكون فيه زوجها، وتنخرطان في الحياة الاجتماعية معًا؛ ولأنهما لا يملكان المال، فهل حرام عليهما الالتقاء في الحديقة وقزقزة اللب؟! وعندما كانت مرجان ستخرج إلى الشوارع بحثًا عن زوجها كانت صديقتها ستنتظر في منزلها، وهكذا، ما كان زوجها الذي لا يملك مفتاح القفل الجديد سيعود من على الباب، لم تكن مرجان تغار على زوجها من صديقاتها قطُّ، كُنَّ أخوات في الدنيا والآخرة، ولكن نظرًا لتدمير منازلهن واحدًا تلو الآخر، تُرِكَت مرجان وحيدة في الدنيا على أن تكون صديقة لأخواتها والسلطانتين في الآخرة.

كان الشارع من صمدية إلى يديكولا مثل فم طفل فقد أسنانه اللبنية، وتمّ نصب ألواح معدنية أمام المنافذ المفتوحة، وعُلِّقَت فوقها لافتات باسم شركة المقاولات التي ستقوم ببناء المبنى الجديد، وكُتب في تحذير مُعلّق على حاجز ممتد أمام مبنى منهار: «بأمر البلدية، ممنوع منعًا باتًّا الجلوس على مقاعد في هذه المنطقة».

بينما كانت تمر من بين القصور المبنية حديثًا في يديكولا... زرعوا أشجار النخيل حتى! اقتربت ناظرة بدهشة، كانت ترى لأول مرة أشجار النخيل في يديكولا، لو كان زوجها في البيت، لكانت حكت له حين تعود: ألم تكن في شارع وطن أشجار مثل النافورات كما تظهر على شاشة التلفاز أيضًا، لقد زرعوا منها... لا، لا، لن تحكي بهذه الطريقة، بل ستحكي على هذا النحو: ألم يكن هناك بيت قديم لعائلة أبلة(6) عائشة؛ عشة... خمّن ماذا حدث لمكان ذلك البيت؟ صار قصرًا! كما أنه محاط بأشجار النخيل وما شابه، كم عانت أبلة عائشة لئلّا يحصلوا عليه! جاؤوا واستقروا دون أن يسألوا... أحاطوه بسياج حديدي ووضعوا حارسًا على بابه حتى، عندما اقتربت ونظرت من خلال القضبان الحديدية، كان المكان أشبه بحديقة، وبقولي حديقة.... فهل تتذكر أشجار التين التي هناك؟ شيء آخر تمامًا، ماذا أقول لكم؛ نخلة! بقيت شجرة تين

مسكينة خارج سور الموقع، نظرت إليها بأسى، لا لن يأتينا رزق من هناك، فأولئك الذين يعيشون في تلك المباني لديهم خَدَم شخصيُون، حتى إنهم يرتدون زيًا رسميًا، تمامًا كما في الأفلام، أمّان! لا أريد أساسًا مباني أهلية. لا تنظر إلى ما يخص الأغنياء! بئس الأعمال التي يقوم بها الناس حين يمتلكون المال، أمّا بالنسبة لنا... كان زوج مرجان يستمع لها وهو يُنقّي الحشيش، وربما كان يجيب... على أي حال...

وصلت إلى مفترق طرق زنزانات يديكولا، أعجبها مظهر أبراج الزنزانة المهيب، أنشؤوا بجوار أحدهم حديقة بهيجة للأطفال، إذا كان زوجها في المنزل الآن، لكانت عند عودتها تخبره: لقد ظهر في المسلسل سابقًا، كان هذا المكان سجنًا، وكانوا يخنقون الأمراء العظام في زنزانات يديكولا... كانت ستتردد بين قول ذلك أو عدم قوله، فستفتح فمها ومن ثم تتراجع مخافة أن يسخر منها زوجها، ويفهم زوجها فيقول: «احكي... احكي»! فتقول: «انظر، سأقول لك شيئًا، لكن لا تضحك. لو كنت سلطانًا مثلًا... أقول لك لا تضحك! وأنا جارية، أُسِرتُ وتمّ جلبي إلى القصر، ومثلما أنا الآن أمسح الأرض طوال اليوم سأفعل هناك، وبينما أقوم بمسح أرضيات القصر، إذ بي ألفت انتباه والدة السلطان، فتُعجَب بي وتختارني للرقص أمام السلطان...». بدأت مرجان هي الأخرى في الضحك، «حسنًا؛ لا تُضحكني! لماذا لا ترتدي قفطانك وتجلس على عرشك، فسنلعب لعبة الخمس بنات؛ ويا لها من لعبة! أنتَ أيضًا أُعجبتَ بي وألقيت لي منديلا أزرق...». كانت مرجان من جهة أخرى تنقي الفول لزوجها؛ «ثم صار شيء بيننا... خلوة... ليس تعدّيًا على قدرة الله، ولكن من المستحيل أن أرغب في أن يكون لي ولد، ظلُّوا يخنقون أبناءهم على الدوام في زنزانات يديكولا تلك، لِمَ؟! لا ينبغي أن يكون هناك منافس للسلطان، أمان أمان يا لهولاء! ليَكُن ابني سليمًا فقط، لا أودُّ أن أكون خاصكي سلطان(7)، انتبه! أقول لك لا تضحك!».

بينما كانت مرجان تسير نحو الأسوار، مرّ بجانبها طفلان، أحدهما أطول من الآخر برأس، قسَمَا كرة إلى نصفين ووضعاها مثل الطاقية على رأسيهما، وعلى بُعد خطوة منهما كان هناك رجل يرتدي طاقية جامع من الدانتيل على رأسه... كانت ستقول لزوجها عندما تعود إلى المنزل: «لو رأيت، كان ثلاثتهم يضعون طواقي على رؤوسهم»، هل كان أبًا وابنيه يا تُرى؟! كان الولدان يسيران بعصبية كأنهما استاءا

من خسارتهما لمباراة أو انفجار الكرة، وبغطرسةٍ، مثل الرجل الكبير، بغضّ النظر عن طوليهما.

ظهرت علامة لافتة بوابة يديكولا، وكان ثلاثة أو أربعة أطفال يلعبون البلي على الأرض التي تساقط عليها الحصى المتبقي من الحديقة، أما كان زوجها يقول ليس هناك أفضل من الفوز في البلي؟! في الحقيقة لم يَقُل، لم يَحكِ زوجها أبدًا عن أي شيء بإسهاب؛ لكن مع ذلك كانت مرجان عندما تعود إلى المنزل، يمكنها أن تحكي لزوجها أنها رأت في البستان هناك ثلاثة أو أربعة أطفال، وأن أحد الصبية فاز ببِلي كل أصحابه الموجودين عند السور.

مرّت مرجان تحت السور وتطلّعت إلى الخضرة الباقية من البستان الممتد من أسفل السور إلى الشارع، عندما تعود إلى زوجها ستقول: «إنه لأمر مؤسف يا عزيزي، لم يتركوا إلا حديقة صغيرة!»، «كما أنك لن تعود تراها أبدًا؛ أين تلك الحمير التي كانت تحمل الخسّ من هناك إلى الحي؟ أمَا كانت الخضرة تمتد على طوال هذا السور؟ يا للحسرة!». عندما تعود للبيت ستخبر زوجها بكل هذا، في الواقع، ليس هكذا تمامًا؛ هل تتذكر ذات مرة حين اشتهت نفسك الحلاوة، كان المنزل فارغًا تمامًا حتى أتمكّن من تسوية الحلاوة لك... لكنك أصررت، وقلتَ: «إذًا لأذهب وآكل التوت من البستان»... وأنا -كي لا أتركك وحدك في منتصف الليل بعقلك هذا- ذهبت معك إلى الحديقة وقمنا بقطف التوت من أغصانها... لِم لَم تخبره مرجان بكل هذا وبشكل أكثر تفصيلًا عند عودتها إلى البيت؟ آهٍ لو كان هناك شخص في البيت يحكي عن الشارع!... لا شك أن ستكون مرجان، لأنها الوحيدة في العالم التي تعود وتحكي لزوجها عن الشارع. عندما لا تتكلم الألسنة؛ لا العيون ترى، ولا الآذان تسمع... ولا يكون لأي شيء طعم.

أسرعت مرجان خطواتها، كانت تسير بمفردها وسط ضجيج السيارات في الشارع المتوجّه إلى زيتين بورنو، وبدا بيت الجمع إريكلي بابا من بعيد، ألم يستطيعوا وضع إشارة المرور هناك؟ كانت ستقول هذا لزوجها لو كان في البيت، على أي حال، عسى الله ألّا يزدّها اليوم.

دخلت إلى حديقة بيت الجمع إريكلي بابا، كانت مزدحمة، وقفت بمفردها على رأس ضريح حضرة إريكلي بابا في الحديقة، كتب الأولياء على اللوحة الرخامية المعلّقة على قضبان الحديد حيث تتكئ بمرفقيها بخفّةٍ بينما تدعو فاتحةً يديها إلى السماء: **ضريح إريكلي بابا، مَن يجلب الإريك(8) في الشتاء المظلم، مَن يوصل رغبات الناس إلى الله، مَن يتصدق بالخيرات والنِّعَم، اروووا الجيش بقربة مياه، وتصدّقوا بالخيرات.**

هذه من كرامات إريكلي بابا، ذات زمان بقي جنود الجيش الذي كانوا في حملةٍ عطشى، وكادوا أن يُهزَموا، لكن إريكلي بابا أعطاهم وعاء من الماء، فارتوى جميع الجنود بالمياه التي فاضت من الوعاء.

لكن ما يثير اهتمام مرجان حقًّا هو أنهم يقولون إن الاسم الحقيقي لإريكلي بابا هو إيريَك بابا، وقد وصل مع الأولياء إلى إسطانبول، وأسّس معهم تكية، وفتحوا أبوابها للعالم كله. وقد أتت امرأة حامل في أحد الأيام لزيارة إيريَك بابا، وكانت تتوحم وقد اشتهت نفسها الإريك، وكان الوقت شتاءً، أين تجد فاكهة موسم الصيف في الشتاء في ذلك الزمان؟ يُظهر الأب إيريَك إحدى كراماته ويحضر سلّة إريك إلى المائدة، ومنذ ذلك اليوم أصبح إيريك بابا يُدعى إريكلي بابا، وكلّما توحّمَت النساء الحوامل واشتهت تناول الإريك ذهبن إلى هذه التكية ليطلبنه من إريكلي بابا.

فتحت مرجان يديها أمام ضريح إريكلي بابا وقالت: «اللهم امنح مرجان ما تريد وأرجِع زوجها»، كانت مرجان تريد ذلك بالطبع، حتى تصبح حاملًا فتشتهي الإريك وتأتي إلى هنا، لكنها تقسم بالله إذا عاد زوجها وحملت ستأتي إلى هذا الضريح مرارًا وتكرارًا، سواء اشتهت نفسها الإريك أم لا. كلٌّ من عندك يا الله.

نظرت مرجان إلى الحشد الداخل والخارج من مبنى بيت الجمع؛ كان هناك طعام لأجل أربعين امرأة. **«يا مَن تمنح كثيرًا من الأصدقاء والرفقة حتى للأموات، يا ربي! لا تتركني أحيا وحدي في هذا العالم».** أخذت شمعة من الكشك الموجود في الحديقة؛ لا، لا... بل ثلاثة، ووصلت أمام خيمة النذر حيث توجد القبور الأخرى، الشمعة الأولى: ليعود زوجها، الشمعة الثانية: لتنجب طفلًا، الشمعة الثالثة... ماذا

ستتمنى؟ ليَكُن طفلها سليمًا معافى. أشعلت الشمعتين الأخريين من لهب الشمعة التي تمنّت بها عودة زوجها، لتربط أمنياتها ببعضها بعضًا، كانت الشموع تنحني على الفور، هل كانت شموع الكنيسة هكذا؟

وبينما كانت تخرج من حديقة بيت الجمع، كانت رائحة الحلاوة اللذيذة تتصاعد من المطعم، اشتاقت مرجان... لزوجها.

دخلت مبنى بيت الجمع، ثم نزلت الدَّرَج إلى قاعة الطعام حيث ستتم تلاوة الأدعية، لم تشعر مرجان بالخوف من هذا الدَّرَج كما شعرت بالخوف من الدَّرَج المؤدي إلى ساحة صمدية، ها هو الوجه المطرَّز لحضرة علي، وها هو الحسن، وها هو الحسين... كانت لوحات أهل البيت كلهم أمامها، المهدي سيعود.

بدأ حشد من الرجال والنساء بالجلوس على الطاولات المصطفَّة باتجاه منصة الجد في قاعة الطعام، وتوجَّهَت مرجان نحو إحدى الطاولات الخلفية، نساء بعيون متشابهة، وإن كانت وجوههن لا تتشابه، يسألن بعضهن البعض: «كيف حالك أيتها الضحية؟»، كانت مرجان يمكنها التعرف على المرأة العلوية من على بُعد مائة متر، إن مرَّت من الطريق حتى وإن كانت تمسح نافذة الطابق الخامس، بدت النساء العلويات وكأنهن يبكين منذ سنوات، وهُنَّ أيضًا كُنَّ يعرفن مرجان! يعرفنها بالطبع، أليست منهن؟ يفهمنها.

جلست مرجان على المائدة، لقد دخلت مرتاحة النفس... وعندما جلست... كانت
Telegram:@mbooks90
مرجان تأتي إلى هنا دائمًا مع خديجة، وكانت هذه أول مرة تأتي بمفردها، عندما يكون الإنسان مع شخص آخر لا يتساءل إن كان مَن حوله ينظرون إليه أو بِمَ يفكّرون؛ لكن الآن ينتابني الفضول حول ما إذا كان أقارب المتوفاة ينظرون إلى مرجان قائلين مَن هي هذه المرأة؟ لربما يقولون أيضًا إنها جاءت لأكل الأرز باللحم والحلاوة مجانًا، وإلا فإنها ليست قريبتنا، وإلا كنّا عرفناها؟ دعهم يقولوا أو لا، ما دام هذا مكانًا لإطعام الفقراء لن يقولوا... لا بُدَّ أنهم أيضًا فَرِحين من حصول المزيد من الناس على طعام الله الذي سيوزِّعونه...

كانت النساء اللاتي في قاعة الطعام يجهِّزن أحجبتهن، وفي قسم المطبخ

المنفصل عن قاعة الطعام بمنضدة، كانت زوجة ابن المتوفاة الكبير تساعد في الطبخ.

كانت رائحة الأرز باللحم الزكية تفوح، إنها المرة الأولى التي لن تتناول فيها مرجان الطعام بمفردها منذ ذهاب زوجها، كما أن هناك العديد من الأشخاص الذين تشبه نظرتهم نظرتها؛ الأئمّة الاثني عشر الذين تمّ تصويرهم على الجدار أمامها بكل جمالهم، المهدي سيعود.

لاحظت مرجان بينما كانت تنتظر الحلاوة أن الله قد أنعم على المرحومة بالولد - ما شاء الله-، وبحسب الأشخاص الذين جاؤوا لتقديم التعازي، فإن المتوفاة كانت لديها ثلاث بنات وولدان، لا... لا؛ لو أن هاتين المرأتين اللتين ساعدتا في التحضيرات كانتا ابنتي المتوفاة، لكان من المستحيل أن يصبغا خصلات شعريهما قبل مرور أربعين والدتهما، أما الكِنّات فمنذ الآن بعيدات عن بعضهن البعض، على أي حال، لن يبقى من المتوفاة عدد من المنازل يساوي عدد أبنائها، سيتم الآن بيع المنازل، وسيضطرُّ أبناؤها الذين عاشوا في المنازل المملوكة لأمهم خلال حياتها لمغادرتها.

وبما أن زوجة الابن الكبرى أهلكت نفسها في المطبخ وكانت تتعامل مع الجميع بلطف، ووفقًا لأنها وضعت مغرفة الأرز عندما ذرفت إحدى بنات المتوفاة دمعة من عينها، وركضت لتمدّ كتفها إلى أخت زوجها، فلا بُدَّ أنها تسكن في أحد المنازل، وهذا يعني أنها كانت تحاول الحفاظ على علاقات جيدة مع الأخوة الآخرين حتى لا يعترضوا.

أليست هي التي أنجَبَت الحفيد الأول للأسرة التي تحمل الماء إلى قاعة الطعام تلك، أليست حماتها مَن أعطت لهم هذا المنزل في حياتها ليعيشوا فيه؟! فيمكن اعتبار استقرارهم في المنزل هذا نوعًا من وصية المتوفاة... والآن قبل أن تبرد تربة المرأة سيقع بيع المنزل أو شيء من هذا القبيل... والله، سيُضحِكون الناس عليهم.

كان هناك همهمة عالية في قاعة الطعام جراء السؤال عن الأحوال وذكر الراحلة بالرحمة.

أخذ الجد مكانه على المنصة، وضُبت الموجودات في قاعة الطعام أنفسهن، وارتدت النساء الحجاب، فتح الجد الميكروفون: «ليجلس الواقفون أوّلًا، نتمنى في البداية رحمة الله لأمنا زهرة التي وافتها المنية، ليجعل الله مثواها الجنة، وليكرم روحها، لقد رحلت عنّا، لكنها لن تفارق الأئمة الاثني عشر».

وضع مَن في قاعة الطعام أيديهم على صدورهم وقالوا في صوت واحد:

- الله الله.

«سنتلو الأدعية، وسنقرأ ياسين، سنقول أدعيتنا باللغة التركية، ونتمنى أن ترافقونا وتقولوا 'الله الله'، إن بيت الجمع مزدحم هذه الأيام، وتمّ الاستعجال في تنظيفه، نزل الأرواح على الفور إلى قاعة الطعام، لقد نزلوا قبل التنظيف، لذا لا تؤاخذونا! يمكن أن يحدث هذا... نحن جميعًا أرواح، وسنستر عيوبنا ونقائصنا...».

استمرت الأحاديث في القاعة بنبرة خافتة، وتابع الجد: «لكنني ما زلت أسمع الأصوات! أعزائي، هل صوتي مسموع للجميع؟ لو أن أحد أرواحنا تريد التحدث فلتصعد وتكمل الحديث، جئنا هنا للدعاء، جئنا للاستماع للدعاء...».

توقّفَت الهمهمة في القاعة عند تحذير الجد، فاقترب الجد من الميكروفون مرة أخرى:

الأرواح العظيمة، الرحمة للعالمين، صلوات من القلب على محمد المصطفى وأهل البيت الكرام... سلام الله تعالى ورحمته على محمد المصطفى، وعلي المرتضى، وعلى أبنائهم، في سبيل الله نعتزم قراءة سورة ياسين الشريفة، لروح كل السابقين والحاضرين من عائلة قاراجا، ولروح الحاضرين والسابقين لجماعة الأرواح الموجودة هنا اليوم، وخاصة لأمّنا العزيزة الروح الطاهرة زهرة قاراجا التي انتقلت إلى رحمة الله، فاللهم تقبّل نياتنا وأمنياتنا وصالح أعمالنا وإطعامنا!

هتفت مرجان مع الحاضرين في القاعة:

- الله الله

وخزت الأمهات الشباب المذهولين القائلين «آمين» بمرافقهن، ونظر إليهم آباؤهم نظرة شذرة، ما هو ذنب الأولاد، هذا ما سيحدث إذا أحضرت ابنك إلى إحدى جنازات بيت الجمع، كما سيصبح لابن مرجان أيضًا... كانت ستخبره عن كل هذا بالتفصيل... حتى إنها كانت ستناديه وتطلب منه إحصاء أسماء الأئمة الاثني عشر...

بدأ الجد بقراءة ياسين ملحنًا قليلًا في صوته:

بسم الرحمن الرحيم «يَس، وَالْقُرْءَانِ الْحَكِيمِ، إِنَّك لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ، تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ، لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ، لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ، وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ، وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ، إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَانَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ». يا إلهي، جئت إلى أبوابك، اضحك في وجهي، لا تمنعني أجرك... **ستبلغ مرادك وتدخل الجنة.** يقولون إن الجنة والنار موجودان في هذا العالم، امنحني الجنة في هذا العالم يا رب، مثلما عشت الجحيم في هذا العالم، اعتبِرني ضحيَّةَ ما عانيته! **نحن نعرف ما فعلته البشرية وما ستفعله.** وماذا فعلتُ أنا؟ إذا ذهبت بقولي اذهب... **نحن نحيي الموتى لحسابهم.** إلهي، الذي يحيي الموتى، أيمكن ألّا تعيد مَن ذهب؟! **لا تحزن يا محمد...** معاذ الله! يا رب، لا تجعلني مثل سيدنا أيوب لأني لم أخلص لسيدنا محمد.... **جهودهم شدّى، إن رأى قبرًا قديمًا فإنه يكفر، أهذا سيتم إحياؤه، ولم يبقَ منه سوى حفنة من العظام. يا مسكين، خُلِقتَ من نطفة، إن مَن خلقك هكذا سيبعثك بالتأكيد، القوة التي تُخرج من شجرة خضراء شجرة حمراء، خالق جميع المخلوقات، ومبدع الأرض والسماء، الذي يرى ويعرف وينبئ.** *لا تحرمني من معجزتك يا رب*! **يا مَن تقول «كُنْ فيكون»، و«مت فيموت»،** و«عد فيعود» و«أولَد فيولد». يا ربي! **أنتم تحيون به، وتكونون به، انفصلتم عنه، وستعودون إليه.** سبحانك ربي، لا تزدّني دون إجابة.

بسم الله الرحمن الرحيم قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، لا تجعلني وحيدةً مثلك يا رب! **وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ...** حاشا!

- الله الله...

كانت مرجان منكفئة على نفسها من جهة، تضع يدها اليمنى على فمها وعلى قلبها قائلة «الله الله»، ومن جهة أخرى؛ تبكي في خشوع.

وبعد ياسين واصل الجد مغيّرًا نبرة صوته...

الله الله الله الله الله يا الله يا إلهي يا ربي يا إلهي يا ربي فتحنا أيدينا وأحنينا رقابنا نتضرع إليك. تقبّل من تالين ياسين الشريفة ومن مقدّمي الطعام أعمالهم الصالحة لأجل التكية... اعتنيت بزوجي كأنه طفلي، لم يرَ الطعام الذي أكله ولا الخير الذي قدّمته له، رأيته أنت يا ربي فأرِهِ له...

قرأنا ياسين الشريفة الآن لأجل رسول العالمين سيدنا محمد المصطفى وأهل البيت العظماء، فاقبلها يا رب!

- الله الله...

ندعوك بياسين الشريفة التي قرأناها لأرواح المتوجهين إليك، القائلين «الله الله»، أنت بهم أعلم يا ربي.

- الله الله...

فداك نفسي يا الله، فتحت يدي وذهبت من باب إلى باب، مثلما يتجول الشحاذ على الأبواب... اسمعني، وأخبِر زوجي، إذا نسيني... إنك عظيم، أرِني له في رؤياه واجعله يتذكّرني عندما يستيقظ... أعاني العذاب، رجاء، أبلِغه يا ربي.

لروح كل الحاضرين والسابقين من عائلة قاراجا، ولروح أمّنا العزيزة زهرة الطاهرة التي انتقلت إلى رحمة الله، بلّغها يا ربي!

- الله الله...

سجّل ثواب العمل في دفتر الأعمال الصالحة يا ربي...

- الله الله...

ولا تزدّ الأيدي المفتوحة لك خاليةً يا ربي!

- الله الله...

حمدًا لك يا ربنا القدير لأنك جعلتنا عبيدك وأمّة حبيبك محمد المصطفى وأتباع سيد الشجعان علي وحاملي نسبه.

- الله الله...

لا تحرم أرواحنا من رحمتك يا ربي لأجل خديجة الكبرى وابنتها فاطمة سيدة نساء أهل الجنة...

- الله الله...

لا تنسَني يا إلهي في هذه الدنيا لوحدي مع روحي الجافّة هذه! **من أجل حُرمة ومحبّة الإمام الحسن وملك الشهداء الإمام الحسين** الحسن والحسين في الحقيقة من الأسماء الجميلة أيضًا، حيدر حسين مثلًا... **أنِر قلوبنا يا رب!**

- الله الله...

اشتدّ بكاء مرجان فمدّت لها المرأة التي بجانبها المناديل. يا إلهي، أيمكن أن يرى العالم دموعي وأنت لا تراها يا الله؟!

يا خالق الكون، يا قابض الأرواح، أيها الإله القدير الرحيم الكريم الحكيم، إذا كانت أمنا زهرة التي خلقتها من التراب رجعت له، حقّقتَ أمرك، خُلِقَت من التراب وعادت له؛ حوّل سيئاتها وذنوبها التي ارتكبَتها بعلم أو بغير علم بينما تحيا في الدنيا إلى حسنات!

- الله الله...

نظرت مرجان إلى معصميها بينما كانت تدعو الله فاتحةً يديها، ربما كان من الأفضل تنفيذ أمر العودة إلى الله، وربما كانت كل هذه الكرامات إشارات خفية لهذا الأمر، ماذا لو قطعت مرجان معصميها وتخلّصَت من هذا العالم؟

ربّ اجعل قبرها نورًا، ومنزلتها الجنة، ومسجدها مُبارَكًا يا رب!

- الله الله...

بالطبع هي كذلك، مَن كان ليجد مرجان عندما تقطع معصميها ويأخذها إلى المشفى... كما أنها شاهدت ذلك في الأفلام، ما أجمل محاولاتهم للانتحار! يجدهم أزواجهم أو أطفالهم أو أصدقاؤهم ويهرعون بهم إلى المستشفى لإنقاذهم، وعندما رأوهم الذين ظلموهم ودفعوهم للانتحار وكرهوهم في الحياة بين الموت والحياة هكذا؛ ندموا على ما فعلوه، وبعد ذلك تشبّثوا جميعًا بالحياة معًا، ظلّت مرجان تنظر إلى معصميها، عروقها الأرجوانية... لو قطعتها ونجت... مَن هناك ليجدها بين دمائها ويأخذها إلى المستشفى؟ مَن يلاحظ وجودها ويسأل أين هي عندما تغيب عن الأنظار؟ غير أصحاب الشقق في العمارات التي تمسحها، ربما سيقولون بعد أسبوع أو أسبوعين: «أرأيتم، لقد حصلت على آخر نقودها وذهبَت».

يا ربّ أدخلنا في شفاعة محمد المصطفى رحمة العالمين وآل بيته الكرام.

- الله الله...

ثم سيعثرون على مرجان أخرى بحلول نهاية الأسبوع الثالث لتمسح عمارتهم، جثة مرجان... مَن يعلم بعد كم شهر... سيطرق صاحب البيت الباب عندما لا تدفع الإيجار مرة ومرتين... وفي المرة الثالثة سيكسر الباب فماذا سيرى... الحشرات تأكل مرجان... ثم سيدفنونها في مقبرة المقطوعين، إيه، في الحقيقة سيكون ذلك هو الأنسب...

اجعلنا جيرانًا ورفقاء لأمّنا فاطمة يا ربي!

- الله الله...

اجعل لنا عزم شيخنا السلطان حاجي باشيكتاش ولي!

- الله الله...

ارضَ عن شيخنا واحفظه يا رب!

- الله الله...

أسعِد أرواح الأولياء الموجودين في حضرتنا الروحية بفضل أوليائك يا ربي!

- الله الله...

الثلاثة، والخمسة، والسبعة، والأئمة الاثنا عشر، والأربعة عشر الأطهار المعصومون، والسبعة عشر زنّارًا، والأربعون، والأولياء، والشيوخ، والخضر ذو الفرس الرمادي. لم يضحك لهم أحدٌ في الدنيا، لكن كل أحبابهم سيكونون معهم عندما يموتون. **اجعل لكلٍّ منهم نصيبًا من رحمتك يا رب!**

- الله الله...

من أجل هذه اللقيمات التي أُعطِيَت لأجلك، ظلّت مرجان تنظر إلى معصميها، وعروقها الأرجوانية... هل يلاحظ الله وجود العبد ليدرك غيابه؟ سوف تموت، ولو سمع زوجها بوفاتها، يأتي في الأخبار على سبيل المثال «وُجِدَت امرأة وحيدة ميتة في بيتها»، ليس كذلك، لا بُدَّ أن يكون الخبر هكذا: «ماتت امرأة من الوحدة»، عندها سيفهم زوجها كم أبكى برحيله مرجان التي لم يستطع يومًا أن يُضحِكَها ببقائه... **امنح أهل بيتها الباقين وأقاربها وأحبّاءها ورفقاءها الصبر والصحة لأجل الأعمال الصالحة التي قدّمتها يا رب...** أهل بيتها! كم أنهم كثيرون! الأحباب... والرفقاء... في الحقيقة لو كان عندها واحد من هؤلاء لن تحزن مرجان لو ماتت.

- الله الله...

مدّت مرجان يدها إلى علبة المناديل الموجودة أمام المرأة التي بجانبها، وأخذت منديلًا ثم أعادته ثانية إلى أمام المرأة، فمدّته المرأة لها بمعنى «خُذي، فداكِ، خُذيه»، وانحنت على أذن مرجان وهمست «منحك الله الصبر يا ابنتي. لقد تدمّرتْ من بكائك والله». «لقد تفوّقتِ علينا جميعًا، لكنني لم أستطع إخراجك، هل كنت جارتك أو ما شابه؟». وبينما كانت مرجان تومئ برأسها، قالت المرأة: «لن تموتي مع الموتى، ماذا ستفعلين...».

لا تُفرّقنا جميعًا عن أهل البيت يا ربي!

لو كان لدى زوجها هاتف...

- الله الله...

كان سيعرف حينئذ بما ستفعله مرجان، تتصل به وتبلغه إمَّا تَعُد إلى المنزل وإمَّا أقتل نفسي. وإن كان تهديدًا فليكن، ولو لم يَعُد الرجل لن تعود مرجان في كلمتها، ماذا سيحدث لو ماتت أو عاشت؟ لِنَرَ حينها كيف سينهض زوجها من أسفل هذه المصيبة.

لا تحرمنا من شفاعة سينا محمد وعناية علي المرتضى يا ربي!

ليرحمها الله على أي حال.

- الله الله...

على الأقل... ظلَّت مرجان تنظر إلى معصميها. وعروقها الزرقاء... ليس لدى زوجها هاتف. كانت تهدِّد الله بالتفريط في حياتها، وهل يحمل عبدٌ إثمَ عبد آخر؟ إن انتحرت وذهبت للعالم الآخر، لن يقتنع ولو ألقت بنفسها من على الصراط حتى... إنه ذنب العبد... إن الانتحار خطيئة، لا بُدَّ أنها كانت تعاقَب عليه مُقدَّمًا؛ بحياتها دون أن تملك شيئًا في الحياة سوى روحها الجافة.

ليكن الدعاء لها منَّا وقبرها من الله تعالى، ليقبل دعاءنا وإطعامنا لأجل أرواح شهداء كربلاء، حتى لو رأى زوجها خبر وفاة مرجان بالصدفة على التلفاز... لو رآه، الرجل الذي صار رجلًا، لكنه لم يستطع العثور على أي بطاقة هاتف والاتصال بزوجته، هل سيسعى ويؤسس بيتًا ويشتري جهاز تلفاز ويشاهد وفاة مرجان؟!

إلى أرواح شهدائنا كافة الذين ضحّوا بأرواحهم لأجل هذا الوطن، وخاصة قائد حرب الاستقلال الوطني مصطفى كمال أتاتورك ورفاقه؛ افتحوا أنتم أيضًا أيديكم لأجل أرواح المردّدين الله الله... ومع هذا يعيبون على التلفاز، ها هي مرجان قد وضعت كل ما لديها في التلفاز؛ لكن انظروا كان هو مَن حزن عليها وأعلن للعالم وكأنه أحد أقاربها: «لقد رحلت عنَّا مرجان»، «لقد فقدنا مرجان»، بينما لم يلاحظ

أحدٌ وفاتها كما لم يلاحظ حياتها. **وخاصة لروح أمنا زهرة التي انتقلت إلى رحمة الله، الفاتحة...**

بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ، اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ. آمين.

نسأل الله أن يثبّتنا جميعًا على الطريق الصحيح، ويجعلنا في الجنة، ويرحمنا الله كثيرًا...

الله الله، الله الله، الحمد لله، الحمد لله، نعمة جليل الله، بركة خليل الله، شفاعة رسول الله! عليكم الصلاة والسلام.

عسى أن يكون حلالًا لمن يأكل، عسى أن يكون حجّة لمن أطعم، حفظ الله مَن أكل ومَن أطعم، ومَن طبخ قليله وأحضره، وبشّره بالخضر ولم يحرمه الأمان، عسى أن يكون طعامنا حاميًا له من كل بلاء وحادث، ليكُن طعامنا طعامَ الخضر، كل الموائد الذي أعدّتها عائلة قاراجا، وخاصّة أمنا زهرة، مُسجّلة في دفتر الجنة والعزة للجميع.

نور النبي الكريم علي، وشيخنا السلطان حاجي باشكتاش ولي، الحق أبلج! يا الله يا محمد يا علي... تقبّل الله...

- الله الله.

«أيتها الأرواح العزيزة! هذه التكايا صنيعة الله ومحمد وعلي وطعامكم، وستظل حيّةً بالله وبمحمد وبعلي وبطعامكم، استلِموا طعامكم وأنتم خارجون دون أن تقولوا كثيرًا أو قليلًا، رضي الله عنكم جميعًا، شكرًا لكم على الاستماع بصبر».

أغلق الجد الميكروفون، واصطفّ أقارب المتوفاة أمام المطبخ بينما كانت تسمع التأمينات من القاعة «الله الله»، و«سَلِم فمك»، و«بارك الله فيك». وبدؤوا بتوزيع الأرز باللحم والحلاوة المُجهّزة في الأطباق يدًا بيد، حسب الأصول، على الطاولات.

ظلّت مرجان مع المتوفاة، لن يكون لها مَن يسوّي الحلاوة ولا مَن يبكي عليها مثل

والدتنا الراحلة زهرة، آه، يا للراحين في هذه الأمة!...

ظلّت مرجان تنتظر، وتبكي مع كل الأغاني الشعبية الحزينة التي تبثُّها قنوات التلفاز الموسيقية ومحطات الراديو: «حبيبي، مرّت سبع سنين على رحيلك، الشجيرات التي غرستها أثمرت».

جلست مع النساء اللاتي في الأفلام وانتظرن معهن زوجها، كانت توركان شوراي تنتظر قادر إينانير، وفيليز أقين تنتظر كارتال تيبت، وهوليا كوتش يغيت تنتظر إيديز هون، ومرجان تنتظر زوجها الشارد، كم كان انتظار النساء اللاتي في الأفلام جميلًا! ينفلت بسرعة مثل حبل البَكَرة التي ربطته مرجان بدبوس أثناء صعودها إلى كنيسة القديس آيا يروجي، وتبيضُّ معه شعورهن في غمضة عين. وليكن... كانت مرجان ستتعرَّف على زوجها لحظة رؤياه في أي ثانية تنتظره فيها في الشارع.

ما كان زوج مرجان قد عاد بعدُ عندما كانت تنتف شعيراتها بالشمع للمرة الثانية بعد الديك الذي نذَرَته لمسجد سمبل أفندي، تزوَّج المتسابقون في برنامج التزويج في حفل زفاف العام، ولم يكن زوج مرجان قد عاد. عملت البلدية فهُدِمَت العديد من المباني القديمة في صمدية وشُيِّدَت مبانٍ جديدة، وعُلِّقَت أمامها لافتة مكتوب عليها «تمَّ بناء هذا المبنى ضمن إطار التَّحوُّل الحضري»، ولم يعُد زوج ميرجان بعدُ. ومع هدم المنازل قلَّت في الشارع أعداد النساء اللاتي يشبهن في المظهر مرجان، ولم يعُد زوج مرجان. دخل جامع سمبل أفندي ضمن إطار التعديلات، وباتت مرجان تدعو أمام اللوحة المعدنية المنصوبة أمام العريشة بدلًا من داخلها المحيط بالشجرة التي تحوَّل إليها السلطانتان المتعانقتان، ولم يعُد زوجها.

أبلغت مرجان أحد مُلّاك العمارات أن طفلها حيدر... نعم، نعم... أثناء لعبه مباراة مع أطفال الحي سقط وكُسِرَت ذراعه في أحد الأيام السابقة، وقد تحسَّنَت حالته أكثر فأكثر، ظلّت مرجان تسلق العظام الطازجة وتجعله يشرب حساءها مع النخاع مرتين في اليوم، كانت ستذهب إلى المستشفى لإزالة الجبيرة، فهل يمكن ألّا تأتي غدًا؟

نزلت مرجان من الحافلة في المحطة عند ممر هاشم إيشجان، لم يكن الممر مضاءً

بالمصابيح؛ بل بأحلام الأطفال المنبهرين بصفوف الدراجات الملوّنة المصطفّة على الأرض، والمعلّقة من السقف في المحلات التجارية على طول الممر، الأطفال الذين يقومون بفحص الدراجات حتى لو لم يرغبوا في شرائها، ويسألون وهم يرنّون الجرس الموجود بجوار الفرامل ويدفعون الخرزات المعلقة في قضبان العجلة إلى الناحيتين مثل خرزات العدّاد. «كم تكلفة هذه الدراجة يا أخي؟»... الأطفال الذين يستندون على النوافذ، ويذهبون في حافلاتهم وعقولهم عند الدراجات التي رأووها في هذه المحلات، بعضهم سيطلب من أمّه درّاجةً حتى قبل أن تعبر الحافلة الممر، إذا ربّت المرأة طفلها قائلة: «لا يمكن طلب كل تراه، يجب أن نرى أولًا إذا كان لدينا المال لنشتريه أم لا»، فلن يطلبه الطفل على الفور؛ ولكن إذا قالت أمه في يوم من الأيام: «أخبِرني»، «ما الذي تريده كهدية مقابل تقريرك الدراسي»؛ سيكون الجواب جاهزًا بالفعل: «دراجة».

خرجت مرجانِ من ممر هاشم إيشجان، وبدأ بالسير نحو سور بوزدوغان، كانت السيارات تمر من فتحاته دون توقُّف، والأطفال يلعبون بنشاط في الحديقة الكبيرة التي على جانب الطريق، والسكارى يتوجهون نحوه كالكفار، رفعت رأسها ونظرت إلى السور، ظهر رجل يقف فوقه، يمكن أن يسقط، لكن يا لجرأته! إذا انزلقت قدماه، ناهيك عن الاصطدام بالأرض من ارتفاع بضعة أمتار، فلو نجوتَ من السقوط ستسحقك السيارات المارة تحت السور... خلع الرجل الواقف فوق السور سترته بهدوء، ووضعها على الحجارة، فوقف لفترة من الوقت وتطلّع أمامه، وضع يديه على جانبي رأسه ثم فتحهما... فأسند يديه على ركبتيه وانحنى، ركوع؟ كان الرجل يصلي فوق سور بوزدوغان، شاهدته مرجان لفترة، وبينما كان الرجل المُصلّي يضع جبهته على سترته التي فرشها كسجادة صلاة ويسجد، مرّت مرجان تحت السور، استدارت من عند بنايات إيمتش ودخلت الشوارع الجانبية لأونقاباني، وفا بوزاجيسي؟ لا... لا... ليس وقته الآن، تابعت سيرها... كان هناك طابور طويل أمام كنيسة آيين بيري، اصطفّت في الطابور، كان هذا الحشد المكوّن مُعظَمه من النساء يخبرن بعضهن البعض كيف تحقّقت أمنياتهم خلال شهر واحد، ومع أنها كانت زيارتهن الأولى، إلا أنهن جئن إلى هنا ما أن تحقّقت سريعًا رغبة إحدى صديقاتهن

التي أخذت مفتاحًا من هنا.

كانت الكنيسة مزدحمة حدَّ التدافُع، فكان الناس يتقدمون شبرًا شبرًا في صخب شديد صادر من تمتمتهم بالأدعية، أخذت مرجان مفتاحًا من النافذة القابعة في القسم الداخلي للباب مباشرةً وكأنه تذكرة للسعادة، ووضعت خمس ليرات في الصندوق أمامها، كان مفتاح نحاسي صغير يشبه مفاتيح الصناديق القديمة، وقد تمَّ كسر أحد أسنانه، التحقت مرة أخرى بنهاية الطابور الممتد حتى نافذة المفاتيح، أكانت ستعقد تحقيق رغبتها على المفتاح المكسور؟ كانت هذه المفاتيح من كرامات كنيسة آيين، أي شخص يأخذ مفتاحًا من هنا فيعلِّقه في قلادة أو يضعه في محفظته أو في سلسلة مفاتيحه أو يحملها معه بأية طريقة، ويتمنَّى أمنية؛ فسوف تتحقَّق أمنيته عادةً في غضون شهر، وبعد ذلك يعيد المفتاح ثانية إلى الكنيسة، عندما وصلت مرجان إلى النافذة مرة أخرى، قالت: «تبيَّن أن هذا المفتاح مكسور، هل يمكن استبداله؟». أخذ الرجل الجالس خلف المنضدة المفتاح ومدَّ لها أحد المفاتيح اللامعة في الصندوق أمامه، خرجت مرجان من الطابور والمفتاح في يدها، عجبًا، هل يمكن أن يكون المفتاح الأول الذي أُعطي لها هو الوسيلة لتحقيق أمنيتها؟! يمكن بالطبع، ما دام هو الذي خرج من نصيبها؛ لا يهم إن كان مكسورًا... ماذا لو أعادت مفتاحها الجديد وقالت: «أريد استعادة المفتاح الأول؟». صار الطابور أمام النافذة أطولَ، وربما كان مفتاحها قد تمَّ تسليمه بالفعل لواحدة أخرى، تخلَّت مرجان عن تغيير مفتاحها وانضمَّت إلى الطابور الممتد أمام صندوق خشبي صغير، كان الناس يمسُّون بمفاتيحهم قفل هذا الصندوق ويديرونه كما لو كانوا سيفتحونه، ثم يدعكونه بإطار كل الصور الموجودة للأم مريم أو سيدنا عيسى واحدًا واحدًا، وصلت مرجان أمام الصندوق، فتمنَّت أمنيتها: «يا رب، أعِذ زوجي»، ثم أدارت المفتاح، حتى لو جاء ولم يكن تكن مرجان موجودة، سيجد المفتاح تحت الدواسة، فيديره كما تدير مرجان المفتاح الآن، ويفتح الباب ويدخل إلى منزله... سارت مرجان إلى أمام صورة الأم مريم، يا أيتها الأم مريم، لقد أتيتُ كذلك إلى كنيسة آيا يورجي في السابق...

نزلت مرجان إلى الطابق السفلي من الكنيسة، كان الناس يصطفُّون أمام النوافير

المتراصّة جنبًا إلى جنب... يفتحون الصنابير كأنهم يفتحون الطريق لتحقيق رغباتهم، فيملؤون الزجاجات بالمياه ويأخذونها معهم، لم يكن مع مرجان زجاجة، ولم يكن عندها علم بمسألة المياه، اشترت زجاجة من الزجاجات البلاستيكية التي تباع في الكنيسة، فتحت الصنبور قائلة «باسم الله»، ثم أغلقته على الفور، وفتحته هذه المرة دون أن تقول «باسم الله»، فتمنّت أمنيتها، وشربت جرعة مياه، وملأت الزجاجة التي في يدها، أما كان زوجها قد بدأ مؤخرًا في سَقْي الزهور، فإذا هي سقت تلك الزهور بهذا الماء وتمنّت أن يأتي زوجها ويسقي هذه الزهور مرة أخرى... بالإضافة إلى أنها ستحمل معها المفتاح... سيتحقّق مرادها.

خرجت من الكنيسة مطمئنّةً، ولكن ضمانًا للأمر ذهبت إلى كنيسة آيين بيري مرة أخرى صباح الثلاثاء والخميس -نعم، الأيام التي ستأخذ فيها حيدر للفحص- حتى يدعو القسيس لها بالذات، أخذت هذه الفكرة من الحارس الواقف على باب الكنيسة؛ أو بالأحرى أنها سألته أول مرة ذهبت فيها للكنيسة لضمان استجابة الله لها: «هل تُقبَل كلُّ الأمنيات هنا بالقطع؟»، فقال لها بأن تأتي أيضًا يومي الثلاثاء والخميس خلال الأسبوع لقدّاس البابا، وتُحضِر معها أيضًا وعاء من زيت الزيتون، لأجل مصابيح الكنيسة على الأغلب، كانت مرجان لا تستمع حتى للذَّوّاقة على شاشة التلفاز، ولا تستخدم زيت الزيتون في طعامها؛ فهو باهظ الثمن، لم تذُقه حتى، وكانت تستخدم زيت عبّاد الشمس ذا العلامة التجارية، ولكن في ذهابها الثاني إلى الكنيسة، أنفقت المال واشترت زيت زيتون «خالص مؤنس كوميل»، لم تدخل، كان ما زال هناك طابور طويل أمام القسيس، يا إلهي، يا لمن ينتظرون عند أبوابك لأجل قسم من السعادة، غطّى القسيس رأس مرجان ودعا لأجلها، كانت مرجان تقف على بُعد شِبرين من القسيس، كان الرجل الوحيد الذي تقترب منه بهذا القدر منذ ذهاب زوجها، توبة... توبة... معاذ الله! اغفِر لي يا رب! كان القديس رجلًا وسيمًا لا يمكن بخسه حقّه، ليَعُذ زوج مرجان يا رب...

كان الجو لطيفًا بالنسبة للنساء اللاتي في الأفلام، فهن يرقدن على ظهورهن بعد أن ارتشفن رشفة من ينبوع الحب ووصلن إلى مرادهن بشكل ما؛ أما مرجان فكانت تلف على ضريح تيلّي بابا وجامع السلطان أيوب وضريح يوشع بابا... وتركيا كلها

ضريحًا ضريحًا ولم يعد زوجها.

عاد قادر إنانير، وكارتال تيبت، وإديز هون ولم يعُد زوجها الشارد.

دائمًا ما كان بيير لوتي(9) خاصَّتكم يغبط النساء المتجولات في إسطانبول خاصَّتي تحت برج الساعة في دولمه باغشه مع أحبَّائهن وأزواجهن.

كان الأولياء كارت «اليقين» الذي سيُقدَّم إلى الله من أجل مرجان، ستجعل الأولياء يصدِّقونها أوَّلًا، ثم ستصعد رغبتها إلى الله، أيمكن أن يقول الناس ذهبنا إلى هناك وتحقَّقَت أمنيتنا... ذهبنا إلى هنا وتحقَّقَت أمنيتنا، كذبًا؟!

ولَّى الأولياء وجوههم عنها

وولَّى زوجها وجه عنها

يا إلهي، لقد جعلت مرجان تحتاج إلى العالم.

يا إلهي، لقد جعلت مرجان تحتاج إلى الموتى.

يا إلهي، لقد جعلت مرجان بحاجة إلى وجه مبتسم.

يا إلهي، لا تولِّ وجهك عن مرجان.

كان مشهورًا جدًّا، يحدث بالضبط ما قاله. ليس كذبًا، حتى إنه ينطق بالأسماء حرفًا حرفًا. كانت مرجان أيضًا تعرف اسم زوجها، لكنها لم تكن تعرف مكانه، حسنًا، إنه غالٍ بعض الشيء، لكن... لم تكن مرجان تعرف متى يعود زوجها إلى مكانه الأصلي، أي بيته، مثلما لم تكن تعرف مكانه، أما هذا العرَّاف فيذكر التاريخ حتى.

ذهبت إلى السوق الياباني الأصلي لشراء صبغة شَعر وفرشاة البيض وبينما كانت تمر بأكواب مزخرفة برموز الأبراج؛ نعم، العرَّافة تعرف حتى برج الشخص الذي في حياتها؛ غير إنه بمَ يفيد البرج لمرجان؟... حين همَّت بالذهاب وجدت أنه من المستحيل حجز موعد؛ فالناس يصطفون في الطابور منذ أسابيع... كان يقرأ نوعين من الفأل في نفس الوقت: قراءة القهوة وقراءة التاروت، كان غاليًا.

على الرغم من أن شعرها لم يكن أبيض تمامًا مثل النساء اللاتي في الأفلام، إلا أن تأثيرات مرور الزمن عليها بدا طبيعيًا بالنسبة لمرجان، كانت مقدّمة شعرها البيضاء مُصفّفة مثل صنارات الصيد المتدلية من جسر غلطة إلى البحر، تحاول اتخاذ القرار بالوقوف أمام الطبقات المصبوغة، ماذا لو صبغت شعرها باللون الأسود مباشرة؟ لا لا، ستكون حينئذٍ مثل إبراهيم تاتلي سِس، اختارت اللون الكستنائي لفاروق تيناز.

كان مفتش الكهرباء يكتب الفاتورة واقفًا أمام عداد الكهرباء عندما دخلت إلى العمارة وفي يدها كيس يحوي صبغة الشعر وفرشاة البيض، كانت تفوح من الرجل رائحة صابون عَطِرة كما لو أنه قد استحمَّ حديثًا.

ولجت مرجان بيتها، ما دام أنهم لن يعطوها موعدًا قبل أسبوع حتى لو اتصلت بالعرّاف الآن وحدَّدَت موعدًا... فلو عاد زوجها خلال أسبوع، لن تذهب إلى العرّاف، لم تُوقّع على سندٍ بحجز موعد، فتحت التلفاز واتجهت إلى المطبخ، عصرت بعض صبغة الشعر في وعاء كانت قد تخلّصَت منه وأغلقت غطاء أنبوب الصبغة، قامت بدعك الصبغة بواسطة فرشاة البيض، ثم أخذت وعاء الصبغة والقفازات من علبة الصبغة والكريم الذي أخذته من درج دولاب غرفة النوم إلى غرفة المعيشة، وارتدت قميصًا قديمًا لن تندم عليه إذا تلطّخ في حال تناثَرَت الصبغة. المرآة المعلّقة بمسمار فوق حوض الحمام... كانت تقول على زوجها إنه لا يستطيع حتى دقَّ مسمارا أمَا دَقَّ زوجها هذا المسمار؟! حملت المرآة إلى الصالون، نشرت الصحف على الأريكة لئلّا تتناثر الصبغة عليها، ثم وضعت المرآة على ظهر الأريكة وجلست على الأرض حتى تتمكن من رؤية نفسها في المرآة، من ناحية أخرى؛ كانت تستمع إلى التلفاز، حتى... إنها قامت بتعديل زاوية المرآة كي تعكس التلفاز، وتشاهد التلفاز في نفس الوقت، كانت مرجان تظهر الآن في منتصف التلفاز المنعكس في المرآة، ظهرت على شاشة التلفاز قبل وفاتها، لم ترحل عنّا مرجان، ولم تفارقنا.

لنفترض أن مرجان امرأة ظهرت في برنامج خاصّ بنمط الحياة، وأنها تقوم بالعناية الروتينية بنفسها، وضعت الكريم على أذنيها ورقبتها وصدغيها ناظِرةً في المرآة، بهذه الطريقة، وهكذا حتى لو تلطّخَت بالصبغة فلن تترك أثرًا على جلدها،

لقد اتفق أولئك الذين لم يشبعوا من مدح العرّاف مُردّدين أنه يعرف كل شيء. ما فائدة قراءة الطالع؟ عندما تذهب امرأة ليقرأ لها طالعها، يعلم أن لديها مشكلة، أي؟! إنها تنتظر شخصًا ما، لا تحتاج أن تكون عرّافًا لتعرف ذلك، إنه غالٍ، ارتدت قفازين بلاستيكين كي لا تتلطّخ يديها بالصبغة، تستغرق بقعة الصبغة ثلاثة أو أربعة أيام لتُمحَى من بشرتك، ومع هذا ستبقى متّسِخة، كانت مرجان تنتقي خصلات شعرها البيضاء واحدة واحدة وتصبغها باستخدام فرشاة البيض، فإن عاد زوجها إن شاء الله يجب ألّا يجد شَعرها قد خالطه الشيب، لم تستطع مرجان صبغ شعرها بالكامل، فهل يمكنها تحمُّل تكاليف الصبغ العميق كل شهر بعد ذلك؟ ألم يَقُم مُصفِّفو الشَّعر في برامج التجميل على شاشة التلفاز بتظليل خصلات شعر النساء بدلًا من صبغه كله بنفس اللون؟ سقط قليل من الصبغة على وجنتها، فمسحته على الفور، لم ينل هذا العرّاف شهرته من اللا شيء بالتأكيد... فإذا قال لها إن زوجك لن يعود، كل هذا خدعة لسلب أموال ولا شك. كانت رائحة الصبغة كريهة للغاية، أحنت رأسها وحاولت رؤية الجزء العلوي في المرآة وفرقت الخصلات البيضاء التي في المنتصف بالمشط وصبغتها، فهذا ما سيراه والله! ولو جاء زوجها هذا المساء ورأى الشعرات البيضاء في الخلف وهو يمسح على شعرها... التفتت جانبًا وحاولت رؤية ما في حِذا أذنها في المرآة، أخذت بضع خصلات بشكل عشوائي وصبغتها، ثبّتَت خصلات شعرها التي صبغتها للخلف بمشبك حتى لا تسقط على وجهها وتلطّخه، وبينما كانت تنتظر حتى يحين وقت غسل شعرها، «أخذت» لنفسها قهوة، ألم تكن النساء اللاتي يجدّد مظهرهن إثر مرورهن على مُصفِّف الشَّعر في التلفاز دائمًا ما يحتسين القهوة بينما يصبغن شعرهن؟! احتست مرجان قهوتها في فنجان من الطاقم الإيطالي، وكان مكتوب تحت الصورة التي على الفنجان بأحرف مزخرفة: روما. كانت قد شاهدت على التلفاز نافورة الحب الموجودة في روما، فأي شخص يتمنى أمنية ويرمي عُملةً معدنية في بِركة تلك النافورة ستحقق أمنيته على الفور، إذا كان لديها المال وأمكنها الذهاب إلى روما، فماذا تعني العملات المعدنية؛ ستكتب بالطبع شيكًا على بياض وترميه في بِركة النافورة...

ناهيك عن روما، فإنها لم تستطع حتى الذهاب إلى حضرة مولانا في قونيا

لتتمسّح في بابه وتتمنى أمنية، فحتى لو أنه يقول «كائنًا مَن كُنتَ، تعال» لا يقدّم بالطبع مصاريف السفر.

بَيْد أنه لو أمكنها الذهاب إلى ضريح زين العابدين في ملاطية... فزين العابدين أحد الأئمة الاثني عشر، هو يعرف حال المنتظرين، ألم تذكر جميع الأقوال وأدعية الأئمة أن «المهدي سيأتي»؟! ألم ينتظروا هم أيضًا المهدي؟! إن ذهبت مرجان كما سمعت إلى هذا الضريح وأكلت بضعًا من الملح المنثور هناك، ثم تمسّحت في الضريح؛ سيعود زوجها -عفوًا- سيُحقّق الله رغبتها.

ذهبت إلى الردهة، خلعت ملابسها ودخلت الحمام لتغسل شعرها، ثم فتحت الصنبور، ودخلت تحت الماء، زوجها... عجبًا متى سيعود؟! عليها أن تعلم، أغلقت على عجلٍ الصنبور وغادرت الحمام، بالنظر إلى الخطوط البنية المنسابة من صبغة شعرها الرطب على وجهها وكتفيها وظهرها وصدرها؛ فهناك تفرُّعات كثيرة في طالع مرجان.

ولجت الصالون، وعثرت على رقم العَرَّاف في حقيبتها، كان الستار مفتوحًا أيضًا، هل يا تُرى رآها شخصٌ ما عارية؟! أمَان! إنها ليست إلا نافذة بمقدار شبر... مَن سينحني وينظر ويرى؟! اتَّصلَت بالعَرَّاف، يا تُرى متى يمكنها حجز موعد؟ الأسبوع المقبل؟ لا يزال كثير على الأسبوع، كان طلب مرجان عاجِلًا للغاية، ألا يمكنهم قصر المدة؟ إن الأمر مهمٌّ حقًّا، لو سمحتم!

مسحت مرجان الدَّرَج في اليوم التالي وجعلته يلمع، كأنها ترُدُّ حقَّ سكان العمارة، وأتت إلى باب العرَّاف كأنما أوصلتها سيارة الإسعاف.

يبدو كالمقهى! انتظرت مرجان أن يبرد الفنجان الذي غطّته بالطبق أمامها جالسة بمفردها دون التفكير في سبب جلوس الكثير من النساء هنا بمفردهن. ليس مهمًّا ما سيقوله الناظر من الخارج على مرجان، المهم ما سيقوله الناظر في فنجان القهوة بعد قليل.

قهوة؟ هل يا تُرى كان من الأفضل لو شربتها بسُكّر زيادة ليترسّب الثفل سميكًا

ويلتصق بالكوب بشكل أفضل فتظهر الرموز؛ أم لو شربتها سادة وانساب الثفل بشكل أسرع ويبشر بالطرق التي توصل زوجها إلى البيت...

- لتكن بسكر قليل.

كانت النساء ينتظرن في المقهى كأنهن ينتظرن دورهن لإجراء فحص، حاولت مرجان ألّا تتلاقى عيناها بأعينهن، كما كانت تحاول الفرار من أعين النساء الأخريات المنتظرات في الطابور عندما كانت تتلقّى العلاج لإنجاب طفل، هؤلاء النساء اللواتي يعرفن هموم بعضهن البعض، لا يتعارفن لئلّا يتذكرن مكان تعارُفِهنّ، وإذا تقابلن صُدفةً في الشارع لا يُسلّمن على بعضهن البعض. كانت مرجان تنتظر سابقًا في الطابور على الأبواب لأجل طفل على الأقل، وهي الآن تنتظر في الطابور لأجل زوجها، وهذا ما يطلَق عليه رفع مستوى الطموحات.

وصلت قهوتها، لم تكن ستخبر العرّاف بشيء عن نفسها، بل ستستمع إلى ما يقوله بوجهٍ خالٍ من التعبير، ولن تمنحه طرف الخيط أو تُوجّهه، لتعرف ما إذا كان سيعرف حقًّا؟! كانت النساء يذهبن إلى العرّاف في الغرفة المجاورة عندما يأتي دورهن وفي أيديهن دفتر وقلم، ليدوّنّ الملاحظات التي يقولها الرجل، لم يخطر ببال مرجان أبدًا! ليتها أحضرت معها دفتر الملاحظات الذي اشترته عندما ذهبت إلى كنيسة آيا يورغي، أمان! ليكن ما يكون! ألم تأتِ بالفعل لمعرفة موعد عودة زوجها؟! ستحتفظ بها في عقلها على أي حال، تجرّعَت القهوة حتى ثفلها، ماذا لو ارتشفت رشفة أخرى، هكذا لن يمكنه قراءة الطالع بسرعة، حسنًا! يقولون إن أفضل عرّاف مَن يتنبّأ بالطالع دون النظر إلى الفنجان... أخذت رشفة أخرى وغطت فنجانها.

لم يكن هناك زبون ذَكَر واحد حتى، ألم يمنح الله صنف الرجال أيّ هَمّ أو غَمّ أو شيئًا من قبيل «يا ثُرى ماذا سيحدث؟»؟! ظلت مرجان تتأمّل النساء بالنظر إلى خواتمهن، فمن بينهن مخطوبات ومتزوجات. عجبًا! هل رحل أزواجهن هن أيضًا؟ رحلوا وتعطّلَت تلفازاتهن أيضًا؟! هل يا تُرى المرأة التي خلعت خاتمها ذاك ووضعته فوق الفنجان كي يبرد بسرعة؛ متزوجة أم مخطوبة؟

كان من الأفضل في الواقع لو لم يكن لديها خاتم، لترى ما إذا كان العرّاف سيعرف

أن امرأة بدون خاتم زواج متزوجة؟! جاء النادل إلى مرجان وقال لها: «تعالي!».

أخذت مرجان فنجانها فذهبت إلى الغرفة المجاورة وجلست مقابل العرّاف، رحّب بها، ما اسمها، كانت مُصمِّمةً على عدم منح الرجل أي معلومات؛ لكنه سبق أن أعطت اسمها عند حجز الموعد على الهاتف، أي أن العرّاف لا ينظر لأسماء أصحاب الحجز فقط للتظاهر بمعرفة الأمر، إذًا اسمها مرجان.

أدار العرّاف الطبق قليلًا على الطاولة دون أن يفتح الفنجان، ونظر من الخارج:

- لقد وقَعَت في الكثير من المتاعب يا مرجان.

أي والله، براڤو! تعرف مرجان ذلك بالفعل، لو لم تكن في ورطة فلم أحضرت النقود التي ستُكلِّفها مسح سلالم عمارة لمدة شهر وتعطيه للعرّاف.

لكن العرّاف فتح الفنجان وقلبه بهدوء في يده...

- أنتِ تعيشين في مكان يُنزَل له بالسلالم... شارع به شجرة عند مدخله، بعد أن تنتهي من التَّلَّة وتتَّجِهي يمينًا، قريبًا من البحر.

إنه يعرف.

- أنت وحيدة في منزلك منذ مدة.

إنه يعرف.

- حدثت مشكلة بينك وبين زوجك.

ها هو على الرغم من عدم ارتدائها خاتمًا عرف العرّاف أنها متزوجة، وأن المشكلة بينها وبين زوجها... أي إن ما سيقوله بعد ذلك لن يكون مجرد استنباط من كلامها؛ بل معلومات، اسم زوج مرجان؟ عرفه العرّاف، متى غادر؟ كم يومًا، إذن متى سيعود؟

خلط العرّاف أوراق التاروت ثم نشرها على الطاولة:

- اختاري الآن بيدك اليسرى عشر بطاقات!

اختارت مرجان البطاقة الأول قائلة «باسم الله»، هل يا تُرى تختار البطاقة الثانية تلك الموجود على الحافَّة أم التي تقدَّمت قليلًا إلى الأمام مع أخذها البطاقة السابقة؟ كان مصير مرجان بين يديها لأول مرة في حياتها... فتح العرَّاف البطاقات واحدة تلو الأخرى وبدأ في إخبارها: سيعود مَن تنتظره، وستنتهي مشكلتها، انظري إنها بطاقة الملكة، ستبدأ حقبة جديدة ومختلفة تمامًا في حياتها، كانت مرجان تودُّ طرح سؤال بينما كان العرَّاف يجمع البطاقات التي يفسّرها.

- شيء...

لم تنوِ مرجان تقديم أية معلومات، ولكن ما دام أن العرَّاف عرف اسم زوجها وعنوان بيتها، حتى إنه كاد أن يعرف الرمز البريدي لها.

- ترك زوجي البيت... ألم تَقُل منذ برهة سيعود مَن تنتظرينه، متى سيعود يا تُرى؟

- اختاري بطاقتين أخريين.

اختارت مرجان، فقلَب العراف الورقتين ونظر إليهما:

- خلال هذا الأسبوع.

يا إلهي! كم أنت عظيم! ليكن المال الذي تلقَّاه العرَّاف كله حلالًا عليه.

- حسنًا، قلتَ إنه سيعود خلال هذا الأسبوع، أتساءل: أي يوم؟

- اختاري بطاقتين أخريين.

اختارت مرجان، وفتح العرَّاف البطاقتين:

- بعد أربعة أيام ماذا يكون؟

- الخميس!

الحمد لك يا ربي!

- هل هناك أسئلة أخرى؟

هل سيكون لها طفل؟ فالله لم يمنحها، سيكون، وسيكون صبيًا أيضًا... عادت مرجان إلى بيتها طائرة، لا يزال هناك أربعة أيام حتى يوم الخميس، أربعة أيام! آه، يا لها من مدة طويلة!

كرَّست مرجان نفسها لعملها كأي امرأة تريد تشتيت انتباهها، وعلى النساء اللاتي يَقُلن إن عملها غير متقن أن يأتين وينظرن الآن، فو الله لقد مسحت مرجان سلالم العمارة حتى صارت أنظف من طاولات مطابخهن، وحيدر؟! شُفي والحمد لله. لا يزال طفلًا سيقع ويقوم ويكبر بالطبع، إنه شقيٌ بعض الشيء، حفظ الله أولادكم... وإن كان يتدلَّل فليتدلَّل؛ إن لم يتدلَّل الآن فمتى سيتدلَّل؟!

قامت مرجان بتنظيف سلالم عمارة أخرى سُلَّمة سُلَّمة قبل ثلاثة أيام من وصول زوجها، ثم عادت إلى البيت وفتحت قنوات الموسيقى التي تبثُّ أغاني مبهجة على التلفاز، ونظَّفت كلَّ شِبر في بيتها، سيأتي زوجها، أليس كذلك؟ عرف العرَّاف أنها متزوجة، ومتى ذهب زوجها، واسمه، وأنه سيكون لهما ولد، ألن يعرف اليوم الذي سيأتي فيه زوجها؟

قبل يومين من عودة زوجها؛ قامت مرجان بإزالة الشعر بالشمع، غسلت وكَوَت طقم البلوزة والتنورة الحمراء مرة أخرى وعلَّقته في الدولاب، فقد كانت رائحة منعِّم الأقمشة قد اختفت من طول الانتظار فيه.

وقبل يوم واحد من عودة زوجها؛ ذهبت مرجان إلى متجر لويا واشترت العطور الموجودة في زجاجات زرقاء صغيرة التي تباع بأربعة ليرات؛ فقد كانت مرجان مسؤولة بشكل ما عن عدم عودة زوجها لهذه المدة الطويلة، فلو أنها كانت -على سبيل المثال- تضع عطرًا، أمَا كان زوجها سيشتاق لرائحتها؟ أكان سيبقى كل هذه المدة الطويلة بالخارج؟ إن مرَّ بجوار امرأة تستخدم عطر مرجان سيتذكرها، لقد أصبحت عطور لويا رائجة كثيرًا، وبالطبع هناك نساء يتجوَّلن في الشوارع يستخدمن هذه العطور، كانت رائحة العطور باهظة الثمن أقوى في الأصل؛ لكن تلك العطور أغلى من العرَّاف حتى، بالإضافة إلى أن زوجها وَضعُه لا يسمح له بالانتقال إلى نيشان تاشي بعد مغادرة البيت لتمر من جواره النساء اللاتي يستخدمن مثل هذه

العطور باهظة الثمن، مَن يدري في أي مكان منعزل يرقد الرجل الآن؟ على أية حال؛ سينام ليلة الغد بجانب مرجان، ويستيقظ الصباح التالي بجوارها أيضًا، استلقت مرجان على الأريكة السرير التي فرشتها ليلة الأربعاء، الحمد لله يا ربي! غدًا ستنام في سريرها مع زوجها دون الحاجة لصوت التلفاز، نعم، نعم، لقد أحسَنَت فعلًا بذهابها للعراف، وإلا كانت سُتفاجأ -وهي غير مستعدَّة- من زوجها الذي تنتظره منذ مدة، علاوة على أن الخميس يوم مبارك، حتى في المسلسلات العثمانية؛ ألم يكن السلطان يختلى بخاصكي سلطان في ليلة الخميس؛ ليكون المولود أميرًا صالحًا؟! كانت مرجان ستنام حتى ظهر يوم الخميس وترتاح جيدًا، وعندما يأتي زوجها لن يراها وأسفل عينيها قد ازرقَّ من البكاء وعدم النوم السليم لمدة طويلة، بل بكامل بهائها كما تستيقظ النساء في مسلسلات التلفاز، حصلت على إذن لختان حيدر يوم الخميس، حفلة الختان؟ لن يقيموها، سينهون الأمر في العيادة ثم يذهبون به إلى سعادة السلطان أيوب.

استيقظت مرجان في السابعة صباحًا بألم في خصرها؛ أم أنها... أنزلت سروالها ونظرت، اللعنة! لقد حاضت، في نفس يوم عودة زوجها، يأتي الرجل إلى منزلك بعد كم شهر، هكذا عندما يشاء... لا، لِم تحيض النساء اللاتي ليس لديهن أطفال؟! بَيْدَ أن العرَّاف بشَّرها بحيدر... حسنًا، ماذا ستفعل مرجان عند وصول زوجها هذا المساء؟

كانت مرجان بالطبع على عِلم بما يُسمَّى مُثبِّطات الدورة الشهرية، سمعت النساء الأخريات عدة مرات يطلبونها من الصيدلية، حتى إنها سمعت مَن تناولنها يتحدثن همسًا في اليوم التالي، البلهاء! سيكون لدى مرجان فرصة -عفوًا- مانع للحمل... وبدلًا من تناول حبوب منع الحمل في اليوم التالي، ستعلن أن اليوم السابق هو عشية العيد، لنفترض أنها لا ترغب في الحمل، يظلُّ الحمل أيضًا احتمالًا قائمًا، لنفترض أيضًا أن والد الطفل اختفى، ثم أنجبت مرجان، لم تكن لتسمح بأن يُطلَق على ابنها «لقيط»، لم تكن لتسمح لهم بتحقيره عنادًا بزوجها، حتى إنها كانت ستقيم لابنها تمثالًا بجوار تمثال يونس الذي في ميدان صمدية.

لم يكن شيئًا يمكنك شراؤه من صيدلية مشهورة بالطبع، ولم يكن بوسع مرجان

الذهاب إلى مكان آخر سوى صيدلية دقا لأنها لم تكن تعرف هل يمكن صرف حبوب تثبيط الدورة الشهرية بوصفة طبية أم بدون، فحتى لو يتم صرفه بوصفة طبية، فستحلُّ صيدلية دقا الأمر وتعالج مشكلة مرجان، ومع ذلك لم تكن تعرف كيف ستطلب حبوب تثبيط الدورة الشهرية دون أن تحمرَّ خجلًا، فلم تكن تستطيع حتى شراء الفوط الصحية من البقال، إلا أنها كانت تضعها بين الأشياء الأخرى بينما كانت تشتري من السوق مع وجود امرأة في المحاسبة...

على الرغم من أن الصيدلي نصف الطبيب، بالإضافة إلى أنه -أي الصيدلي في دقا- قد أعطى مرجان حقنةً من قبل، ماذا سيحدث لو طلبت منه حبوب تثبيط الدورة الشهرية وقد رأى الرجل ردفها؟ علاوة على أنها امرأة متزوجة، ماذا إن طلَبت مثبِّطات الدورة الشهرية أو حبوب منع الحمل.

كم من الوقت يستغرق هذا الدواء يا تُرى؟!... كلَّما أسرعت في تناوله قبل مجيء زوجها كلما كان أكثر ضمانًا، دخلت مرجان الصيدلية في الصباح الباكر، كانت تظن أنه لن يكون هناك أحد في الصيدلية في هذه الساعة وأنها سيمكنها طلب الدواء براحة؛ لكن... كانت الخالة التي تأتي إلى الصيدلية كل يوم وتجلس على الكرسي أمام الخزينة حتى في المساء وتقيس ضغط دمها كل ساعة وتقدِّم توصياتها للزبائن بالعلاجات الشعبية القديمة بدلًا من الأدوية التي يريدونها- قد احتلَّت مكانها بالفعل. **لا بُدَّ أن عقلها الآن يروح ويجيء لأن مرجان تشترى مثبِّط الحيض، أليست تلك هي الفتاة التي تمسح السلالم؟ عجبًا ما هو الأمر الملِحُّ الذي انتابها لتأتي إلى باب الصيدلي فجرًا لطلب ذلك الدواء الغريب... حقًّا؟!... ما عمر هذه المرأة لتعرف الغرض من هذا الدواء؟ ألا تعلم؟! انظري إلى نظرتها تلك.** قال الصيدلي لمرجان: «صباح الخير،» اقتربت منه مرجان وقالت: «كنت سآخذ شيئًا ما»، محاولةً خفض صوتها إلى حدِّ الهمس حتى لا تستطيع العَمَّة سماعه، يا تُرى ما اسم الدواء؟ أعني إن كان له اسم مثل أي فيتامين بدلًا من أن تقول مثبِّطات الدورة الشهرية، فلن تتمكن العَمَّة حينئذ من فهم الغرض من الدواء الذي أخذته، دخَلَت في تلك الأثناء إلى الصيدلية فتاة شابة منثنية على نفسها:

- جاءتني الدورة الشهرية، هل يمكن أن تعطيني بوسكوبان؟ أعاني من ألم شديد.

كان من السهل على بعض الفتيات قول إنها حائض، فبغضّ النظر عن كل شيء هو شيء تحت الخصر، قال الصيدلي للفتاة المتلوّية: «اذهبي إلى الخلف، وأنا سأجهّز الحقنة»، وبينما كانت الفتاة متّجهة إلى القسم المفصول بستار في الخلف، قال الصيدلي لمرجان:

- ماذا تريدين؟

هل ستتعامل معه الآن برسميّة؟ فالرجل قد رأى ردفها أثناء إعطائها الحقنة، وبينما كانت مرجان على وشك أن تخبره بما تريد؛ دخل رجل إلى الصيدلية، كان سيأخذ مضادًا للحموضة، كانت رائحة الكحول الكريهة ما زالت تفوح منه، ما حال الأزواج هؤلاء؟ جميعهم مدمنون على الكحول، أقسم أن الله حمى مرجان فلم يعطها مثل هذا الزوج، تموت مرجان ولا تستطيع طلب دواء يتجاوز خصرها بجانب سكّير مثل هذا، ينزل رجل إلى الحانة في صمدية مساءً ثم ماذا يجد هذا الصباح في الصيدلية؛ امرأة تطلب هذا؟ أيعجبكم هذا؟! ألا يُحكى عنه؟!

سأل الصيدلي مرجان:

- ماذا تريدين؟

أشارت مرجان للصيدلي على الرجل وقالت:

- قُم بعملك... أنا أنتظر، وأعطِ الحقنة للفتاة أيضًا لأنها تتألم...

كانت مرجان تعاني أيضًا من الألم؛ لكنها لم تكن تستطيع أن تطلب الحقنة التي توقف آلام الدورة الشهرية مع الدواء الذي يوقفها في نفس الوقت، ففي النهاية الصيدلي رجل، لا يمكن أن يكون هناك هذا العدد من العيون والوجوه، أعطى الصيدلي للرجل دواء مضادًا للحموضة، ثم أخذ بوسكوبان من الرف وبدأ بتحضير الحقنة لحَقن الفتاة، أخرج الرجل الذي اشترى مضاد الحموضة زجاجة ماء من الكيس الذي كان في يده، أخذ قرصًا من علبة الدواء فكسره وألقاه في الماء، ثم انتظر حتى يذوب الدواء مُتكئًا على طاولة الصيدلية بذراع واحدة كما لو أنه يتكئ

على طاولة بار، ثم رجّ الزجاجة وسكبها على رأسه، أووه...

كانت مرجان تعرف أمثال هؤلاء الرجال، سيهبط إلى الحانة في صمدية مساءً، لا شك أنه سيفعل! فهو أحد هؤلاء الذين يتكئون على الطاولة بينما ينتظرون تغليف البيرة التي طلبها من البوفيه بورق الجرائد ووضعها في كيس أسود وخلال هذه الأثناء يفتح زجاجة بيرة أخرى ليشربها، ثم يتعامل مع طاولة البوفيه كأنها بار حتى تنتهي كأس البيرة التي فتحها، حتى إنه يطلب مُقبِّلات كلما طالت المحادثة، ويجعل العامل يفتح له زجاجة بيرة أخرى ويشربها أمامه. وبما أن الرجل كان لديه خاتم زواج في إصبعه... فلا بُدَّ أن زوجته هي الأخرى ترسل طفلها من وقت لآخر إلى الحانة لتطمئنَّ على زوجها هل هو في مكانه وهل أصابه شيء، وماذا ستفعل المرأة؟ فالرجل والد طفلها مدمن على الكحول، إذا سقط رأسه المخمور وإذا انجرح... حسنًا، لقد أنفق دخل عائلته على البيرة؛ لكنه على الأقل يشربها في الحانة ولا ينفق كثيرًا، لقد اشترى البيرة من البوفيه وسَكِر بثمنها.

تبدو زوجة السِّكِّير وكأنها مسؤولة عن كل شوارع صمدية، فكما لا يحرِّك أولئك الذين يعيشون مع قريبٍ أعمى ولو كرسيًّا في منزلهم حتى يتمكَّن قريبهم من العثور على طريقه عن طريق التَّحسُّس دون أن يتعثَّر ويقع؛ تنذر زوجة هذا الرجل نفسها للحفاظ على صمدية كما هي حتى يتمكن زوجها من العودة إلى المنزل حتى وهو في حالة سكر، إذا تحرَّكَت بالوعة صرف على سبيل المثال من مكانها؛ فإنها تذهب على الفور إلى رئيس الحي وتطلب إصلاحها، وإذا لم يتم إعادتها، فإنها ستبلغ الإدارة المحلية بالوضع، لقد علق عقل زوجها السكير بهذه البالوعة...

فقدت زوجة السِّكِّير النوم في الآونة الأخيرة؛ مع هدم المنازل وإعادة إنشائها، وتحوُّل صمدية إلى موقع بناء عملاق، من أي نوع من البناء ستراقب زوجها؟ إذا ما ثمل الرجل ولم يرَ القضبان المتراكمة على الطريق... أو إذا لم يلاحظ في جوف الليل أساسات العمارة المحفورة حديثًا وسقط... ستدور زوجته مشمِّرةً الأكمام في جميع الطرق التي ربما يكون زوجها قد مرَّ منها: أوَّلًا، بالكلمات اللطيفة؛ عنده أطفال وقد كبُرت سِنُّه... ربما لا يلاحظ ويتعثر ويسقط -لا سمح الله-! ماذا لو جمعتم تلك

القضبان؟ هل ستظل جوالات الإسمنت هذه في منتصف الطريق بهذا الشكل؟ هل من الصواب أن تبقى حفرة الأساس هذه مفتوحة هكذا؟ سيكون من الرائع أن يستمع البنّاؤون إلى المرأة فيجمعون المعدات بطريقة منظمة ويقومون ببناء سور أمام الأساس؛ وإلا ستظل تلفُّ على رئيس الحي خاصتك أو الإدارة المحلية خاصتي. إن كان ما زال ثمة شيء منظَّم في شوارع صمدية فالفضل لهذه المرأة، لم تستطع مرجان أن تكون جيدة بقدر زوجة ذلك السّكّير، فزوجها يدخّن الحشيش ولا يغادر المنزل حتى، لئلّا تتوهَّم مرجان أن تعثر قدم الرجل ويسقط -لا قدر الله-، إذا أتى زوجها هذا المساء فليدخّن حشيشًا إن شاء.

ترك الرجل العملات المعدنية على الطاولة ثم خرج قائلًا: «هيا، لقد تأخّرت عن العمل!»، حتى لو كان سكّيرًا، فإنه ينهض في الصباح فيتناول مضاد الحموضة ويذهب للعمل... أخذ الصيدلي النقود وذهب للقسم المنفصل لإعطاء الفتاة الحقنة.

جلست مرجان على الكرسي بجانب الخالة مريضة ضغط الدم، فالتفتت المرأة إليها وقالت:

- ما الدواء الذي ستطلبينه؟

- لا شيء، مسكّن وما شابه.

فعندما يتوقف الحيض، سيتوقف الألم على أي حال.

- ماذا يؤلمك؟

- رأسي.

- ضعي زيت الياسمين على معصميك وشمّيه، إنه يباع عند العطار في الأعلى؛ لكن لا تلتفتي إليه، واشتريه من الرجل القابع عند مَخرَج جامع سمبل أفندي.

خرجت الفتاة التي أخذت الحقنة من القسم المنفصل وهي تعرج قليلًا، وقالت للصيدلي:

- أمن الممكن أن أجلس هنا قليلًا، فأنا أتألّم بشدة.

- بالطبع، تفضّلي!

وفي اللحظة التي نظر الصيدلي فيها إلى مرجان نظرة بمعنى: «ماذا تريدين؟» دخلت امرأة إلى الصيدلية:

- وقعت على فخذي وازرقَّ جلدي، أيوجد كريم يشفيها؟

قالت العجوز التي تقترح الأدوية القديمة:

- أليس لديكِ ملح صخري، خذي حفنة أو اثنتين منه وضعيها في مقلاة ثم لفيها في خرقة واضغطي بها على المنطقة المزرقَّة، ولن يكون هناك كدمات أو أي شيء خلال يومين أو ثلاثة أيام، ستصير مثل مؤخرة الرضيع والله.

ما شاء الله! كم عدد نساء الحي اللاتي يأتين في الصباح الباكر ليشتكين من مشاكل أسفل الخصر؟! وبينما كان الصيدلي يعطي كريمًا للمرأة المزرقة فخذها دخلت امرأة أخرى إلى الصيدلية:

- عفوًا، هل أستطيع أن أزِنَ نفسي؟

ووفقًا لأنها كانت ترتدي سروالًا ضيقًا على ساقيها، وسترة رياضية على ظهرها، وفي يدها زجاجة مياه فارغة بسعة لتر ونصف، وربطة شَعر على رأسها؛ فإنها على ما يبدو إحدى النساء اللاتي يتمشَّين على الساحل في صمدية. يعرف الناس كيف يخصِّصون الوقت لأنفسهم.

- تفضّلي!

قالها الصيدلي.

صعدت المرأة التي استطاعت أن تخصِّص وقتًا لنفسها على الميزان ووزنت نفسها، فالتفتت إليها المرأة التي أخذت كريمًا لفخذها المزرقَّة وقالت: «لكنه يزن نصف كيلو زيادة»، ردّت عليها بينما تنزل من على الميزان:

- لا لا، وزنه يزيد بـ 2 كيلو، إن وزني في العادة 58 والآن 60.

- إذن عمرك 58 عامًا ونصف...

قالتها المصابة في فخذها.

قالت الفتاة التي أخذت بوسكوبان:

- لأزِن أنا أيضًا نفسي.

سارت بعرجٍ إلى الميزان ووزنت نفسها:

- 55. وزنه إذًا زائد بـ 3 كيلو.

- لا يا عزيزتي، وزنه يزيد بـ 2 كيلو.

قالتها التي تعرف كيف تخصِّص وقتًا لنفسها.

- حسنًا! وزني في العادة 52 كيلو...

قالتها الفتاة التي على الميزان وهي تنزل.

الخالة مريضة الضغط:

- لا بُدَّ أن جسدك تجمَّعَت فيه المياه، فوَزَن كيلوجرامين زيادة.

قالت المرأة التي تعرف كيف تخصِّص الوقت لنفسها:

- الحق مع الخالة.

ظلت مرجان تنظر بدهشة، ليتهم يَزِنّ ويغادرن، لقد تأخَّرَت في تناول الدواء.

قالت المرأة المزرقَّة فخذها:

- أعرف طبيعة هذا الميزان جيدًا، لقد وزنت نفسي هنا أمس، ثم ذهبت ركضًا إلى الميزان عند نواحي مسجد سمبل أفندي وقمت بوزن نفسي للتأكد، كان وزني هنا 56 كيلو وهناك 55 كيلو، وهذا يعني أن يزن كيلو ونصف زيادة.

- يزن 2 كيلو زيادة، لا بُدَّ أنك فقَدتِ نصف كيلو أثناء ركضك إلى سمبل أفندي.

قالتها المرأة التي تعرف كيف تخصّص وقتًا لنفسها.

- أيمكن -يا عزيزتي- أن يوجد مَن يستطيع فقدان نصف كيلو في عشر دقائق؟!

الناس، وحتى تلك المرأة التي تعرف كيف تخصص وقتًا لنفسها، وتظهر نتوءات على مفصل ركبتها من الخلف جراء ارتدائها سروالها الضيق بالعكس عند الخروج إلى الشارع في الجو البارد؛ تعرف كذلك عن الميزان الذي في الصيدلية.

يا لمرجان ذات رأس الحمار! أوَ لو كانت تعرف عن الميزان بقدر هؤلاء النسوة، هل كانت سترهق عقلها في التفكير في طبع زوجها وسلوكه؟! هي تعرف، إنها عشبة! سيدخّنها... ويعود إلى صوابه، إذا رأت عينيه زائغتين، فهذا يعني أن العبء ثقيل جدًا عليه؛ تمامًا مثل هذا الميزان، إذا ذهب فلن تقول اذهب، ليَعُد هذا المساء، كانت مرجان تعرف زوجها أكثر ممّا تعرف النساء اللاتي في الصيدلية الميزان.

التفتت المرأة التي تعرف كيف تخصّص وقتًا لنفسها إلى الصيدلي:

- في الواقع توجد موازين إلكترونية، ليتك تشتري منها...

- ما الحاجة إلى ذلك يا عزيزتي؟ مهما كان وزنك فسوف يزيد كيلو ونصف.

قالتها المرأة المزرقة فخذها.

- انظري، سأصعد ثانية... كم يقول؟ 68، اطرح كيلو ونصف؟ 66 كيلو ونصف. ومع هذا فأنا أقول إنني 66 كيلو.

- هل ستعرفين أفضل من الميزان؟

- حسنًا، الوزن خاطئ!

- لنختبر ذلك؟

- كيف سيكون هذا؟

- هيا تعالي!

الحمد لله، ذهبتا أخيرًا، تلك التي لم تستطع المشي على طريق مستقيم ووقَعَت على عَجُزها وازرقَّت فخذها، والأخرى التي لا تعرف كيف ترتدي سروالها الضيق رغم معرفتها كيف تخصص وقتًا لنفسها. فالتفت الصيدلي إلى مرجان وقال:

- وأنتِ ماذا ستأخذين.

كانت الخالة العجوز والفتاة التي أخذت حقنة لتسكين آلام الدورة لا تزالان هناك.

- شيء...

نعم، نعم كان يمكنها أن تقول الدورة الشهرية مثل الفتاة، بدا الأمر طبيًا أكثر عندما قالتها بهذه الطريقة.

- لقد جاءتني الدورة الشهرية أنا الآخرى، ولكن كان هناك دواء لإيقافها.

أخذ الصيدلي حبّة بريمولوت من الخزانة الزجاجية وأعطاها له.

- متى يجب أن آخذ هذا؟

- قبل يومين، واحدة في الصباح والأخرى في المساء.

- يومان؟

لا يمكن، سيعود زوجها هذا المساء، خفضت صوتها أكثر متطلّعة إلى السيدة العجوز:

- هل يا ترى إن أخذت منه في وقتها، لن يكون له أي تأثير.

كانت المرأة العجوز التي سمعتها بالفعل تقول الدورة تنظر إليها وكأنها تقول: «لم تَنطَلِ عليّ، هيا! وقتًا ممتعًا هذه الليلة»، مَن يعرف هذا؟ كيف ستحكي للناس عن هذا؟

- سأرتدي فستان سهرة أبيض الليلة، ولهذا أقول لو آخذ عدّة حبّات.

قال الصيدلي: «هذا ليس صحيحًا!».

دفعت مرجان المال، وفي تلك اللحظة دخلت المرأة المزرقّة فخذها والمرأة التي لا تعرف كيف تلبس سروالها الضيق إلى الصيدلية وفي أيديهما زجاجتا مياه:

- الآن ستظهر الحقيقة. أرأيت؟ مكتوب عليها خمسة لترات... لنرَ كم كيلو سيزن الميزان؟ اثنان أم كيلو ونصف؟

وبينما كانت ذات السروال تضع زجاجة المياه على الميزان، كانت مرجان تغادر الصيدلية.

دخلت مرجان إلى المنزل وأخرجت الدواء من العلبة قبل أن تفتح التلفاز، هل يا تُرى سيضرُّني أخذ حبّتين معًا؟ يردّدون دائمًا أن استخدام هذه الأدوية بكثرة يلخبط الهرمونات، وماذا إن تلخبَطت؟ ألن تنجب؟ أخذت مرجان حبتين من البريمولوت على التوالي. لقد عرف العرّاف اسم زوجها حتى، ولا بُدَّ أنه تنبَّأ بتاريخه المستقبلي، فتحت التلفاز، وطهت الطعام: بطاطس وأرز وسلطة زبادي بالخيار؛ فزوجها يحبها. حمَّصَت الحلاوة، عندما يأتي زوجها ويجد الحلاوة جاهزة، سيدرك أن مرجان قد تغيَّرت كثيرًا ولن يغادر مرة أخرى، غسلت شعرها وجفَّفته وارتدت طقم البلوزة والتنورة الأحمر ووضعت المكياج، ثم نظرت إلى نفسها في المرآة بينما كانت ترشُّ العطر... أيمكن أن يخطئ العرّاف الذي عرف يوم ذهاب زوجها بمعرفة يوم عودته؟!

لو قضت مرجان تلك الليلة في مشاهدة فيلم، تنظر أمامها بخواء لفنجان القهوة المطبوع عليه برج بيزا، لمرَّ الوقت بيُسر. سخَّنَت في تلك الليلة الطعام أربع مرات، وغسلت إبط بلوزتها مع ثيابها الداخلية وجفَّفتها وكوتها لأنها تعرَّقَت فيها بينما كانت تشفط الغبار، وبقيت آثار خيوط المياه على البلوزة. اللعنة! والآن عندما يأتي زوجها ألن يظن أن هذه الخيوط جرَّاء عَرَق مرجان؟! لو كانت غسلت البلوزة بالكامل؛ لأخذت وقتًا طويلًا حتى تجفَّ مع ثيابها الداخلية، ولو جاء زوجها خلال ذلك الوقت... أكانت مرجان ستستقبله بعد كل تلك الشهور بالفانلة؟! وفي اللحظة التي ارتدت فيها البلوزة -لم أكمل شفط الغبار- ومع حرارة الآلة تعرَّقَت مرجان ثانية. ذهبت للاستحمام مرة أخرى. الدورة؟! كأنها توقَّفَت. تناولت حبّة بريمولوت أخرى لضمان الأمر. لتحاول تنظيم الهرمونات بعد القيام بهذا العمل مع زوجها كم حبّة

سيكتب؟ أين شوهد مجيء الأطفال بالثيفم؟

وضعت هذه المرة الجلّ على شَعرها وأخذت تمسكه بيدها وتتركه يجف مموّجًا، ارتدت ملابسها ووضعت المكياج مرة أخرى، أحمر الشفاه؟ ستضعه بالطبع، ألم يكن زوجها بقيمة النوادل الذين في صمدية؟

إذا عاد زوجها مع امرأة شقراء وطفلُه، كما عاد قادير إنانير في فيلم العودة بعد ذهابه لألمانيا إلى توركان شوراي التي استمرّت في انتظاره رغم أنه تركها لأشهر دون خبر سابق... ويقع في طريق عودته حادث سيارة فتموت المرأة الشقراء، لكن لو خرج زوجها وطفله سالمين، ستعتني مرجان طبعًا بزوجها وبالطفل، على أية حال، لم يكن زوجها يحب المرأة الشقراء أبدًا، أمّا بشأن الطفل... ستحب مرجان طفل زوجها كأنه طفلها، وعلى الرغم من أنهم أطلقوا عليه في ألمانيا اسم هانز... كان الطفل الذي اعتاد على اسم هانز سينظر إليها عندما تناديه حيدر.

زوج مرجان؟ إنه آتٍ، وعدها العرّاف، ربما نزل الرجل إلى الطابق السفلي ولم يرنّ الجرس ليفاجئها وعندما حاول فتح الباب بمفتاحه... ولم تسمع مرجان لا سمح الله... أطفأت مرجان التلفاز لتتمكّن من سماع خُطى قدمَي زوجها، فلن تكون هناك حاجة لصوت التلفاز في المنزل ما دام زوجها سيأتي.

ذهبت مرجان إلى الأريكة بجوار النافذة، لا، لا يمكنني رؤية الخارج بوضوح من هنا... جلست على ظهر الأريكة وأخذت تنتظر كي تستطيع أن تراقب من مستوى أعلى، فحتى لو لم تستطع رؤية وجه زوجها، يمكنها معرفته من مشيته.

أضافت مرجان مصطلحًا جديدًا لتاريخ الطب بعد جلوسها على اللوح الذي يبلغ عرضه عشرة سنتيمترات لمدة ساعتين.

ذهبت للجلوس على المقعد واستراحت بعض الوقت مستلقيةً وشَعرها يتدلى من على الوسادة لأسفل دون أن تفسد تموُّجاته. نهضت. إنه الوقت المناسب، لا تقول إن الوقت تأخَّر، أشعلت الموقد مرة أخرى، كانت البطاطس قد بدأت مع تسخينها للمرة الخامسة الذوبان والوصول إلى قوام البطاطس المهروسة، كانت تبحث عن عمل تشغل به نفسها دون أن تتعرَّق.

وبينما كانت تسقي الزهور... يا لخضرتها! انحنت وشمَّتها، لقد عرفت. أما كان زوجها يسقي الزهور... أي أنه زرع حشيشًا! جلست مرجان وشرعت في البكاء، ليس جراء حزنها فقط بل لتُشعر الله بالذنب... لم تكن مرجان من الجياع في أفريقيا، أو المرضى الذين ينتظرون العلاج، أو الذين لا يجدونه؛ والحمد لله على حالنا، لم يأتِ الدور عليها لتستطيع الاكتفاء بالموجود، ستنتظر لفترة أطول بكثير، أكثر حتى ممَّا انتظرت حتى الآن، لعنة الله على ذلك العرَّاف أيضًا! نظرت مرجان إلى العشب المترعرع في الأصيص.

قطفت أوراقه واحدة تلو الأخرى، ثم فتَّتته، وعثرت على ملاءات زوجها وتبغه. كانت قد شاهدت زوجها يلفُّه، خلطت التبغ مع الحشيش ولفَّته، لم تنجح كثيرًا في ذلك.

أشعلته، وسحبت دخان السيجارة، كانت رائحتها كريهة. حبيبي، مرَّت سبع سنوات على رحيلك والبذور التي زرعتها أصبحت سجائر... سحَبَت مرجان أوَّل نَفَس، كان شيئًا يشبه الخراء، هل يستبدل المرء زوجته بهذا؟ سحبت نَفَسًا آخر، تركتها في منفضة السجائر، انطفأت السيجارة، أشعلتها من جديد...

في تلك الليلة رأت زوجها في حلمها، لقد عاد، لقد عاد بالفعل، ماذا ستفعل مرجان الآن؟ لقد أنفقت كل أموالها على زيارات الأضرحة، وحنطور جزيرة الأميرات، وزيت الزيتون النقي، ونقود الشموع، والعرّاف... لقد أنفقتها، ليست المشكلة فيما أنفق، فبما أن زوجها قد عاد فلا يزال هناك المزيد لينفق، فقد كانت مرجان تنذر في كل ضريح زارته نذرًا مختلفًا لأنها لن تدّخر الدجاجة من حيث تأتي الإوزة، ولن تبخل بالديك مقابل أن يأتي زوجها. ارتفع السقف الذي بدأته منخفضًا بنذر ديكٍ في جامع سمبل أفندي ثم ديك آخر لحضرة يوشع بابا، إلى كبش لحضرة أيوب سلطان، ثم عجل لسعادة تيلّي بابا عندما لم يَعُد زوجها، بالإضافة إلى الإريك الذي ستوزّعه على الحوامل في إريكلي بابا إذا حمَلَت بعد عودة زوجها، والأيام الأخرى التي قالت فيها: يا الله، ليَعُد زوجي وسأُشبع المسكين والجائع، وأعطي خمسين ليرة للأيتام، مائة ليرة للمقطوعين الذين بلا أب ولا أم، يمكن أن يكبروا بلا أب، أمّا بلا أمٍّ فصعب، حتى إنها ذهبت إلى حدّ نذر توزيع كراتين طعام على العجائز الذين ليس لهم أحد، بات جميع الجياع في العالم ينتظرون الآن ما ستمنحه مرجان.

ألن يأخذ الله زوجها منها مرة أخرى إن لم تَفِ بنذورها؟ ويتراجع بينما كان على وشك أن يقرّر إسعادها أخيرًا بإعطائها طفلًا لأنها لم تفِ بنذورها؟

لقد صدَقَت مرجان ربها طوال هذه الأعوام، وكانت المرة الأولى التي يَصدُقها ربها فيها، أستكذب مرجان في هذه المرة؟ لقد نذرت أن تُشبِع الأيتام المقطوعين. لنَقُل إن الله أشفق على مرجان ورزقها طفلًا رغم أنها لم تَفِ بنذرها، فهل كانت ستطعم حيدر بالمال الذي نذرته للأيتام؟

فتّشت في جيوب حقيبتها، وقلبت بطاناتها وأفرغتها واحدة واحدة، وصل المجموع إلى 15 ليرة، كان قسم الفن في عقلها الباطن يعمل بكامل طاقته، تمزّقت ورقة الخمس ليرات من المنتصف، فقامت هي وزوجها بلصق الجزء الممزّق من النقود بشريط لاصق.

لم يكن مع زوجها ولا قرش، وعلى الأغلب هذا سبب عودته، ماذا ستفعل مرجان الآن؟ هل تتراجع عن عهودها بعد عودة زوجها، مثل رئيس البلدية الذي يقدّم الوعود

لأجل حصد الأصوات ثم ينسى وعده بعد فوزه في الانتخابات؟

ماذا سيفعل الله بالرجل إذًا... لو استطاعت أن تذبح الديك الذي نَذَرَته لسمبل أفندي على الأقل... كانت هذه أول ذبيحة، ثم ستكمل الباقي خطوةً بخطوة، آه! ليتها لم تنذر ذلك العجل... كانت مرجان على وشك أن تنذر قافلة جِمال وليس عجلًا فقط إذا لم يَعُد زوجها.

ألَّا يمكنهم سحب قرض من البنك؟ كان يوجد شيء اسمه قروض للضرورة، هل كان التلفاز يكذب؟ يوجد... يوجد... تريد تلك البنوك معرفة أين يذهب المال الذي تنفقه، لم تكن مرجان في حال يسمح لها بغمس إبهامها في دم العجل الذي ستذبحه ووضعه على جبين الصَّرَّاف، آه! لو استطاعت ذبح ذلك الديك فقط؛ لعرف الله نوايا مرجان الطيبة، ثم تبدأ مرجان سعيها من جديد وتذهب لتنظيف البيوت كما كانت تفعل حين كانت تتلقَّى العلاج لإنجاب طفل، وتُسدِّد دَينَها لله ولعباده الجوعى المساكين.

كم تكلفة ذبح الديك؟ تتراوح بين 50 و80 ليرة عند القائمين بالنذور، وبالذبح 100... حتى لو اشتروا دجاجة حيَّةً وذبحها زوجها في الحمام... فهذا سيتكلَّف على الأقل 50 ليرة... على الرغم من أن الدجاجة المذبوحة عند الفرارجي لا تتجاوز 20 ليرة، ففي النهاية سيتم توزيعها على الجائعين البائسين، فالفقير يجد لقمة الخبز بصعوبة، لا، لا أريد ديكًا من الفرارجي، ولا يمكنني قول إنني سأذبحها عند القائم بالنذور...

لقد شاهدت على التلفاز أن دجاج الفرارجي يكبر بالأدوية لذلك هو رخيص، كانت الديوك الموجودة عند القائمين بالنذور ديوكًا طبيعية، حتى؛ ماذا قال قراطاي في نظامه الغذائي: لحم الدجاج الحر، هل يهتم الفقراء بإطعام بطونهم الجائعة أم بفقدان الوزن؟ وكأن الناس يتجولون بحرية، وبقي أن تتجول الدجاج والديوك بحرية، إن مرجان حتى عندما غاب زوجها وكانت حرة إلى حدٍّ ما لم تكن لتعرف أن هناك مدنًا أخرى في العالم غير إسطانبول، لولا الأضرحة التي نذَرَت لها نذورها، ولولا أكواب السوق الياباني الأصلي، فالتجوُّل بحرِّيَّة يكلِّف مالًا، كما أن شراء الدجاج

الحر يكلّف مالًا أيضًا.

الديك، سعره إذا ذُبح عند القائم بالنذر 100 ليرة، وإذا ذبحته في الحمام 50 ليرة... لا يهمّ إذا كان ديكًا أو دجاجة، فكلها لحوم بيضاء، واللحوم البيضاء تكلّف عند الفرارجي 20 ليرة، لم يكن مع مرجان 20 ليرة على أي حال، لن تشتري 15 ليرة دجاجةً كاملة، لا يمكنك إلا شراء أجنحة وأوراك دجاج بالكيلو فقط.

في الحقيقة لن يقول الجياع في أفريقيا والفقراء والمساكين أين صدر هذه الدجاجة الموجودة هنا -دعك من المتجوّلة بحرية- وأين وركها، إذا وُزّع الحساء المصنوع بوصفة مرقة كونور وليس حساء الدجاج الذي تصنعه مرجان -دعك منه- على الفقراء؛ سيرضون به.

جلست مرجان مع زوجها وأخذا يفكّران... وقرّرَا أن يشتريا في اليوم التالي دجاجة كيلو من الفرارجي ويوزّعانها على الفقراء.

في ذلك الوقت، قال زوج مرجان الذي لا يعرف أحدٌ مكانه:

«في السابق عندما كنت طفلًا، لم أصدّق أن أحمد كايا قد مات».

الطابق الخامس

كدّسوا كل البيت أمام الباب، بمَ يحتفظون داخل البيت كأثاث يا تُرى؟! أنزلت مرجان الخمس زجاجات مياه سعة الخمسة لترات الفارغة المصطفّة أمام الباب على الدرج. وسيقولون بعد ذلك سنضع المياه أمام الباب ليلًا. لا تطرقي الباب! لكنكم وضعتم زجاجاتكم الفارغة أمام الباب. ليست هناك مياه لمرجان! إذا نظرت إليها في الحقيقة فهي ليست إلا قمامة؛ لكن إذا رميت واحدة منها، يقولون: «واه! كانت زجاجتنا ثمينة جدًا». وحتى لو لم يقولوا هذا، سيقولون: «لقد خصّصناها لتخزين المياه إذا أبلغنا بانقطاعها؛ لماذا رميتِها؟» ألم يكن **كل أوغلان**(10) قد أمن شوكة لراعٍ، وعندما فقد الراعي الشوكة قال له: «واه! كانت شوكتي ثمينة جدًا! وأريد خروفًا عوضًا عنها». كانت عينا الدَّوّاسة التي على شكل قطة المفروشة أمام الباب تحدّقان في مرجان، فرفعتها. لا، لم يضعوا مفتاحًا تحتها. وهذا يعني أنهم يشاهدون الأفلام دون انفعال ولا يتعلمون أي شيء. حسنًا، ماذا ستفعل مرجان بخزانة الأحذية البلاستيكية المكوّنة من خمسة أرفف القابعة أمام الباب؟! ألم يسعهم البيت الكبير فانتقلوا إلى أمام الباب؟! لقد علقوا لباسة بطول ساق إنسان تقريبًا على طرفها. إنهم صنف البشر الذي لا ينحني ولو لارتداء الأحذية حتى... كان هناك ورنيش وملمّع أحذية على الرف العلوي، وبجانبه يوجد كرسي خشبي طويل. لتضعوا أيضًا طاولة صغيرة أمام الباب؟! ورثوا دجاجتين أيضًا، واعلفوهما مساءً لتحصلوا على بيضهما الطازج صباحًا. رفعت مرجان الكرسي، كان لوح الجلوس مكسورًا، سيؤلم مَن يجلس عليه. لكن لا، لا بُدَّ من وجود كرسي بجوار خزانة الأحذية -بمَ كان يُسمَّى؟- هاه! صالة مسح الأحذية أقيمت هنا. قرعت مرجان الجرس لتطلب المياه. الآن سيستاؤون. وإن فتحوا سيكونون عابسين. كان الباب مثل الجدار. أخذت مرجان المقشة في يدها وكنست أمام الباب الأمامي الذي أخلته بسحب ما أمامه جانبًا. دفعت خزانة الأحذية قليلًا، مُحاوِلةً عدم إسقاط الأحذية، وأزالت الأوساخ العالقة أسفلها. ثم بدأت كنس السلم. نزلت إلى الطابق السفلي وهي تكنس الغبار درجةً فدرَجةً. أخذت سطل المياه الموضوع أمام باب الطابق السفلي، ثم رجعت إلى الطابق العلوي وسكبت المياه في الدلو، وسكبت بعضًا من المنظّف الذي قدّمته له إدارة العمارة في المياه. كان منظّفًا

للأطباق؛ بالليمون. لكن ليس بريل أو ما شابه؛ بل منظّف سائل يوضع في زجاجة كولا لتر، يُشترى من بائع المنظفات. ارتدت قفازيها الأحمرَين. رجرجت المياه لترغي الصابون. المياه باردة، لكن القفازات كانت تحميها في الوقت الحالي. غمست قطعة من الخِرَق التي جلبتها معها في الدلو فبلّلتها وعصرتها. قامت بمسح خشب الدرابزين في الطابق السفلي.

عادت إلى الطابق العلوي وبدأت في مسح الدرابزين، وأخذت تمسحه بتمرير الخرقة الملفوفة حول يدها فيما بين القضبان الحديدية الملتفّة على شكل زهرة. ما الذي جعلهم يصنعونها متعرّجةً هكذا؟! دائمًا ما يعلق الغبار بينها. لن يلتفت أهالي هذه العمارة إذا ما غطّت بيتَهم القذارةُ، لكن إذا بقيت ذَرَّة من الغبار بين قضبان الدرابزين فسيلاحظونها. النسوة اللاتي لا يعرفن مسح مؤخراتهن يجعلنها تمسح درابزينهن بعود أذن دون خجل. مسحت القضبان حتى الطابق السفلي ثم صعدت إلى الطابق العلوِي ماسحةً خشب الدرابزين بالخرقة، ومسحت عداد الغاز بنفس الخرقة.

غمست خرقة كبيرة تشبه الليفة في الدلو فبلّلتها وعصرتها ثم انحنت لتمسح أمام الباب الذي أفرغته قبل قليل. سحبت الخرقة من طرف العتبة إلى الطرف الآخر راسمةً قوسًا بذراعها، طاق! انطفأ المصباح. رفعت مرجان يدها في الهواء، فأضاء المصباح الحسّاس، وواصلت مسح الباب الأمامي. مسح هذه العمارات ليس مُربِحًا في الواقع؛ فقد تمّ بناؤها على شقة واحدة في الطابق، ولو أنها بُنيَت على شقتين لحصلت من مسح نفس السلالم على المزيد من المال. ومع هدم العمارات في صمدية واحدة تلو الأخرى، لم يَعُد أمام مرجان فرصة للاختيار بين ذات العدد الأقل من الشقق أو الأكثر. فركت الجزء السفلي الأمامي للباب جيدًا ثم وضعت خزانة الأحذية في موضعها. واستمرت في مسح الجزء المتبقي. كانت الأرضية الوردية مرصوفة بفسيفساء من الحجر المصبوب ذات اللون الأحمر والبني. لا بُدَّ أن تكون أرضيات العمارات المبنية حديثًا من الرخام الأبيض. جفّفت مرجان أمام الباب، وفرشت الدواسة ذات القطة، ووضعت الكرسي المكسور بجوار خزانة الأحذية. إذا سألت، ما فعلت أيضًا، هههه! قامت بصفّ العلب الفارغة ذات القيمة المعنوية بجوار الباب.

انحنت فوق الدلو لتغسل الخرقة. انطفأ الضوء مرة أخرى. رفعت يدها ولوّحت بها، فأضاء. غسلت الخرقة وانحنت على السلالم، فبدأت تمسحها هابطة على الدرجات الواحدة تلو الأخرى.

كانت تقول للمدير في السابق: «ماذا لو جعلنا الأجرة 15 ليرة؟»... مرجان؟! لا بُدّ أنه تفاجأ... مَن كان يحصل على زيادة في مرتبه خمسة وعشرين بالمئة؟ بالإضافة إلى أن سكان العمارة قد أبلغوه بأن عملها غير مُتقَن. كما أنها كانت تطلب إذنًا على الدوام. إن كانت لا تريد العمل، فلتَقُل... إنها لا تريد العمل؛ لكنها لم تستطع أن تقول ذلك. أهي مهتمّة بتنظيف قذارتهم... إن كانت لا تريد العمل، فلتَقُل! يا لأدبهم! انطفأ النور مرة أخرى. وقفت مرجان، فأضاء المصباح. انحنت مرجان إلى الأسفل مرة أخرى وأخذت تفرك درجة فدرجة لأسفل، وما يصِل بينهما، بقوة. إن كانت لا تريد العمل، لقالت! يا لهم من أغبياء! إذا كنتم ستمنحون إجازة مدفوعة الأجر قولوا! كانت مرجان تفرك زوايا الدرجات بسبابتها الملفوفة بالخرقة. تمسح درجة ثم تضع إحدى ساقيها على الدرجة التالية وتنزل لأسفل مثل سير العنكبوت المعاكس، صعدت بضع درجات وأخذت الدلو ثم وضعته على الدرجة السفلية. غسلت الخرقة مرة أخرى، وانحنت على الدرج، انطفأ النور. لوّحت بيدها، أضاءت الطابق ثانية. وبينما كانت تزحف للخلف وتمسح الأرض، علقَت قدمها بتنورتها. كان مسح الدرج بالسروال الضيق -في الواقع- أكثرَ راحة. على الأقل لن ينجزّ السروال من هنا لهنا، ولن يبتلّ أو يعلق بقدمي مرجان. غير أنه: 1- لا تستطيع مرجان الخروج إلى الأماكن العامة بملابس ضيقة. 2- على المرأة التي تقوم بمسح العمارات ألّا ترتدي الملابس الضيقة التي تُظهِر جسدها أو تلفت الانتباه. ربما في الأسبوع القادم؛ إذا مرضت مرجان لا قدّر الله، آه! ليت لها صديقة تتحمّل أعباءها من وقت لآخر. لو أنها جاءت مكانها لتنظيف الأرضية فقط، لن يكون الأمر ملحوظًا، لدرجة أن سكان العمارة لن يقولوا «إنها امرأة جديدة، كانت هناك أخرى الأسبوع الماضي، مَن أنتِ؟». هل ترتدي الإيشارب الذي تربط به رأسها، والتنورة الواسعة، والتيشيرت الذي لا يكشف عن ملامحها، والقفازات الحمراء؟ نعم. حسنًا، إنها المرأة التي تمسح العمارة. كان على مرجان أن تمسح درجات العمارة وتخرج دون أن يلاحظها أحد. نزلت إلى الطابق

الرابع وهي تمسح الأرض، ثم صعدت مرة أخرى، فقامت بتجفيف الدَّرَج حتى لا ينزلق أحد على الأرض الرطبة الممسوحة بالصابون. لن يقولوا إنهم لا يعرفون النزول على الدرج، بل سيلقون اللوم على مرجان. إن كانوا لا يريدون النزول على الدرج، فليقولوا! نزلت مرجان إلى الطابق السفلي والدلو في يدها. وتركت الباب الخارجي للعمارة موارَبًا حتى لا تضطرَّ لرَنِّ جرس الشقق مرة أخرى. خرجت أمام الباب، وأفرغت الدلو على الطريق المنحدرة للأسفل. تغطَّت الطريق بالرغوة... دخلت العمارة مرة أخرى.

الطابق الرابع

أمام الباب كان هناك نعلٌ أبيض، فوقه نعلٌ آخر من الجلد الأبيض مُطرّز بالورد. وفوق عداد الغاز الطبيعي وُضِعَت مزهرية بها ورد أبيض صناعي. ولأن مجموعة الورد الموضوعة فوق عداد الغاز الطبيعي مع النعل الموضوع أمام الباب تشكّل طاقمًا... كما يشكّل السروال الداخلي مع حمّالة الصدر طاقمًا. غلّفت خرزة عين من وسادة مزركشة بالفضيات على صمام عداد الغاز. لقد عرضت جهازها كله على الباب... ما شاء الله... استخدمت المياه التي وضعتها المرأة أمام الباب في الطابق العلوي، ألن تقول الآن «وما شأني؟! أنا تركت الحصة التي تقع على عاتقي من المياه أمام الباب». كيفما كان! لن تُيمّم مرجان الأرضيات على أي حال... ضغطت على الجرس، كان صوت التلفاز يأتي من الداخل، ثم فتحت المرأة الباب. مرجان:

- كنت سأطلب مياهًا...

- لقد وضعتها أمام الباب أمس؟!

- لم يضع ساكنو الطابق العلوي، كما أنهم غير موجودين. اضطررت إلى استخدام المياه التي كانت هنا. فلو سمحت...

أخذت المرأة الدلو الذي مدّته لها مرجان ودلفت إلى الداخل تاركة الباب مواربًا. نظرت مرجان للداخل، كان هناك بيت مُغطًّى بمفرش دانتيل فوق الهاتف الموجود في الطرقة، ويبدو أنها كانت تقوم بالتنظيف؛ إذ كان يظهر في الطرقة دلو ڤيلدا وعصا ڤيلدا مستندة على الجدار، وتطبخ أيضًا حساء العدس الذي كانت رائحته تفوح به. أخذت مرجان المقشة وبدأت تكنس من أمام الباب هابطةً السلالم. تركت المرأة الدلو أمام الباب، ونادت:

- مرجان هانييم.

صعدت مرجان عدة درجات:

- ماذا؟

- انظري، لقد تركتِ الجاروف هنا، إلى أين ستكنسين الأرض؟

- حتى الطابق السفلي ثم من خارج الباب...

- لكن الدرابزين في هذه الحالة سيبقى متربًا.

- سأمسح الدرابزين أيضًا.

- وإن كان... سيتطاير الغبار من هنا لهناك. فلتستعملي الجاروف مرة أخرى.

أومأت مرجان برأسها ثم صعدت الدرجات والتقطت الجاروف. وفي هذه المرة كانت تكنس الغبار في الجاروف وهي نازلة إلى الطابق السفلي:

- شكرًا.

- سهَّل الله عليك.

أدخلت المرأة نعلها المغطَّى بالورد إلى الداخل بينما تغلق الباب. فتركت مرجان الجاروف جانبًا واستمرت في كنس الغبار لأسفل. أمَّان! لا تترك نعليك خارجًا وكأني شغوفة بنعلَي إكليل الجنازات خاصتك. ينهضون ويُعلِّمون الناس عملهم!

عادت مرجان إلى مدخل باب الطابق الرابع مجددًا. فغمست الخرقة التي مسحت بها الدرابزين في الدلو ثم رَغَّتها. ضحت المرأة ووضعت من المنظف الذي تستخدمه في تلميع أرضيات بيتها في المياه. إن المنظف الذي تستخدمه امرأة لديها ورود على نعليها يفوح بالطبع برائحة الورود. نزلت مرجان إلى الطابق الثالث فاركةً خشب الدرابزين. ثم صعدت للأعلى ثانية ماسِحةً قضبانه. لَمَ لا يصنعون هذه القضبان الحديدية أعوادًا مستقيمة؟ لا... لا بُدَّ من الزهور والأوراق... رفعت مرجان ورود المرأة الصناعية ومسحت عداد الغاز. علَّقت الخرقة على الدرابزين. ثم غمست الخرقة التي مسحت بها الأرض في الدلو وبلَّلتها. انحنت وبدأت في المسح أمام الباب. لا بُدَّ أن المرأة تعدُّ السُلطة، يصدر من الداخل صوت سكين تضرب لوح التقطيع «طاق طاق». انطفأ النور. رفعت مرجان ذراعها ولوَّحت. فأضاء.

كانت مصابيح الاستشعار هذه أيضًا تقليدًا جديدًا. إنها تنطفئ بين الحين والآخر.

اقتصادية! لن تضيء سوى الطابق الذي يوجد به ناش؛ فلا داعي لإنارة أضواء العمارة بأكملها لإضاءة طابق فقط، يرى المستشعر الأشخاص وهم يصعدون السلالم؛ لكنه لا يرى مَن يمسح الأرض. أي أنه لا بُدَّ من ارتفاع معيَّن حتى يتمكَّن المستشعر من رؤيته. كانت أضواء الشقة تنطفئ في السابق كل دقيقة وتعيد تشغيلها مرة أخرى. إلا أن مرجان وجدت حلًّا لهذا. فإذا علَّقت عود ثقاب بجوار مفتاح الضوء؛ لن ينطفئ النور ولن تضطر إلى التلويح بيدها على الدوام في الهواء. كانت مرجان تفرك الأرض. وكانت الزوايا يَعلَق بها الزيوت. حتى إنهم لا يكلِّفون أنفسهم عناء إعطائها جيف(11)، وما يمكن أن يفعل منظِّف غسل الصحون عديم الفائدة بهذا الدَّرَج! آه! هذه أكرم المرأة... أيتساوى بلاط حمَّامك الذي نظَّفتِه كالقميص، بدرج العمارة الذي داسه ألف شخص... كانت مرجان قد عرفت أن المنظف الذي سكبته المرأة في الدلو من ذلك الموضوع في دلو ڤيلدا؛ من رائحته. لا، لا تستطيع مرجان مسح العمارة بممسحة ڤيلدا دون الحاجة للانحناء. مسحت امرأة كانت تنظف العمارات في السابق السلالم بڤيلدا فطردوها؛ لأنه لا يُنظِّف. إذا لم يكن كذلك، لِمَ تستخدمونه في تنظيف بيوتكم؟! إيه! تبعًا لسكان العمارة: يجب أن تتعذَّب مرجان. أزالت شبكة العنكبوت من ركن السُّلَّمة بالخرقة. ليسامحنا الله! إنه بيت على أي حال... أخذت الدلو الذي بقي على الدرجة العليا وحملته إلى إحدى الدرجات السفلية. ثم غسلت الخرقة مرة أخرى. كانت المياه باردة. ألا تفتر قليلًا حين يفتح المرء الصنبور؛ لا! تسرَّبَت المياه قطرة قطرة داخل قفازيها. لتتسرب! استمرت مرجان في مسح السلالم هابطة للخلف، حتى وصلت إلى الطابق الثالث. فصعدت إلى الطابق الرابع مرة أخرى. فأخذت الخرقة الجافة وجفَّفت مدخل الباب وفرشت الدواسة. ثم نزلت إلى الطابق الثالث وهي تجفِّف السلالم. أخذت الدلو. انطفأ النور، فرفعت مرجان يدها ولوَّحت. أضاء. فنزلت مرجان ومعها الدلو إلى الطابق السفلي وخرجت من الباب. أفرغت الدلو في الشارع ودخلت إلى العمارة.

الطابق الثالث

وضعوا القمامة أمام الباب فتدفَّقت المياه مع الوَسَخ. رفعت الكيس بغضب ووضعته على الدرجة العليا. كان مثقوبًا من الأسفل. لا يُعرف إذا ما كان ما يتسرَّب من الكيس شايًا أم مياه غسيل الأطباق؟! لقد انسابت حتى الطابق السفلي. لم يكن ضمن وظيفة مرجان رمي هذه القمامة. فليست من البوَّابين الموظفين، ولا توفِّر لها العمارة مسكنًا أيضًا. وحتى لو وفَّرَت... أيَصِحُّ وضع القمامة هكذا؟! ألم يمكنهم إيجاد كيس قمامة سليم؟ لقد وضعوا القمامة في كيس البقالة وربطوا فاه... إذا لم تكن مرجان تريد العمل فلتَقُل. لا تريد مرجان العمل. أخذت كيس القمامة، وبينما كان تُنزِله؛ كانت المياه القذرة تتساقط منه قطرة قطرة، تركته خارج باب العمارة، ثم صعدت إلى الطابق الثالث مرة أخرى.

ليكن الطابق الثالث فداءً للطابق الخامس. فسكان الطابق الخامس يرتِّبون أحذيتهم حتى بنظام. أمَّا في الطابق الثالث: فالأحذية موضوعة أزواجًا أمام الباب، غير مصطفَّة حتى في خزانة أحذية... الصحف القديمة، ليست وظيفتها كما أنها لو أزالتها لتفرغ المكان لعملها؛ ربما تقول المرأة: «ماذا فعلتِ؟! لماذا رميتِهم؟ كنت سأقوم بتنظيف النافذة بتلك الجرائد».

أخذت مرجان الصحف من أمام الباب ووضعتها على الدرجة العلوية. صفيحة حديدية قديمة مستندة على الحائط... أنبوبة غاز. وهل بقيت أنابيب غاز؟ إنه مبنى يعمل بالغاز الطبيعي... إن قُلت ارميها؟! لا يمكن. عجلة دراجة، سيارات لعبة في صندوق كرتوني... كانت هناك أيضًا قصرية برتقالية أمام الباب؛ من تلك التي تشبه الكرسي. ذات مرة عندما خرجت المرأة لتعطيها المياه؛ حدَّثتها مرجان: «سيدتي، هذه الأشياء تزحم المكان، يمكنني أن أرميها جميعًا ولك الثواب». قالت المرأة: «لا، هذه حاجيات ابني، وتحمل ذكرياته». حتى القصرية التي كان يتبوَّل فيها ابنها لها قيمة معنوية... جاء الابن في تلك اللحظة وفتح الباب بمفتاحه ودلف للداخل. ترك حذاءه في الخارج بالطبع. قلبت مرجان حذاء الطفل الذي لا تزال قصريته موضوعة أمام الباب ونظرت إليها. رقم 44... كانت ستطرق الباب وتقول: «يا أختي، حسنًا،

لتبقَ الذكريات، انظُري! صار الطفل في الثانوية، دعيني أرمي تلك القصرية على الأقل لأفرغ المكان لأمسح!»، لكن لا... لم تستطع القول. ستقول المرأة: «لقد أصبحت صغيرة جدًا لابننا على أي حال، خذيها أنتِ واستخدميها لابنك». معاذ الله... لا يمكن أن تعود مرجان إلى البيت ومعها قصرية أطفال.

وضعت مرجان القصرية، وعجلة الدراجة، والصندوق الذي به السيارات اللعبة، وأنبوبة الغاز- على سلَّم الطابق العلوي. كان زوجا الأحذية الموجودان أمام الباب مصنوعين من الجلد اللامع. إذا التقطته الآن بقفازيها المغطَّيَين بالمنظف فستترك علامة، وسيشتكون. خلعت مرجان قفازيها. ثم أخذت الحذاء ووضعته على الدرج، وأسندت الدواسة على الجدار، ثم ارتدت قفازيها وبدأت بالكنس أمام الباب. ومع كنسها كانت المياه التي تسرَّبَت للثوِّ من القمامة تنتشر في خيوط. تركت المقشة جانبًا، ومسحت مياه القمامة حتى الطابق السفلي بالخرقة. ثم صعدت إلى الطابق الثالث مرة أخرى. وبينما كانت تنحني لالتقاط المقشة، انطفأ المصباح. فرفعت مرجان المقشة وهزَّتها فأضاء النور. جفَّفت مرجان رأس المقشة وكنست الدرج حتى الطابق السفلي. مسحت الدرابزين وعداد الغاز. سكبت المياه الموضوعة في برميل أمام الباب في الدلو وسكبت فوقها المنظف. بدأت بمسح ما أمام الباب. كان وسخًا. عَلَقَت المياه المتسربة من القمامة بكل مكان. نعم، هذه مياه الشاي. لا بُدَّ أن المرأة أفرغت إبريق الشاي في الكيس دون تصفيته... انطفأ النور مرة أخرى، رفعت مرجان يدها وأضاءت ظلمة العمارة. صارت الأرضية لَزِجَة. يقول الشيطان... لم تكن مرجان من النوع الذي يتشاجر مع أحد سكان العمارة؛ والآن لا يمكنها حتى التحدث معهم. فالأوضاع سيئة. هُدمت العديد من العمارات التي كانت تمسحها. وسيتم تشييد مبانٍ جديدة، فهل ستُسنَد أعمال التنظيف إلى مرجان... لن تكون ذات فائدة لمرجان على أي حال، فسيوظَّف لها بوَّابون مؤمَّن عليهم.

تركت المرأة التي كانت تمسح العمارة التي تعيش فيها مرجان وظيفتها. لا ترغب مرجان عادة في مسح عمارتها بنفسها؛ لكنها الآن ستطلب القيام بذلك... انطفأ النور مرة أخرى. رفعت يدها. لم يُضئ. وقفت لتظهر نفسها أمام المستشعر. أضاء النور، فانحنت مرجان على الدرج مرة أخرى، وسكبت أوَّلًا المنظف على الأجزاء التي

تلطّخت بمياه الشاي، وتركته لفترة ثم مسحته بالخرقة المبلّلة. لا ينبغي لها أن تخسر العمارات التي في حوزتها. مسحت الدرج حتى الطابق الثاني ثم صعدت مرة أخرى. فجففت أمام مدخل الباب. وفرشت الدواسة. وضعت العجلة والصحف وصندوق الألعاب وأنبوبة الغاز والقصرية الذكرى أمام الباب. خلعت قفازايها. كان بالفعل يمرّر المياه، لكن حتى لا تنغرز في يدها شظية زجاج أو ما شابه... رصّت الحذاء أمام الباب. ثم نزلت الدرج إلى الطابق الثاني وهي تُجفّف السلالم. صعدت مرة أخرى وأخذت الدلو. ثم نزلت إلى الطابق الأرضي. فخرجت إلى الشارع وسكبت مياه الدلو على الأرض. لو كان في السابق، لكانت ستطلب إفراغ الدلو في المرحاض بينما تحصل على المياه من الشقة، لكن أصحاب الشقق لم يعودوا يرغبون في أن تطرق مرجان الباب بعد الآن في غير يوم الدفع.

الطابق الثاني

مُلصقات أفلام مُعلّقة على الحائط بجوار الباب... إنهم طلبة. لا يوجد حذاء أمام الباب، ولا دوّاسة، ولا مياه أيضًا. قرعت مرجان الجرس. فتحت فتاة شابّة ترتدي بدلة رياضية البابَ. وأتى من الداخل صوت الموسيقى.

- أختي! نسينا أن نضيف المياه مرة أخرى، أليس كذلك؟!

أخذت الفتاة الدلو ودخلت. بدأت مرجان الكنس أمام الباب ببطء؛ لكنها لم تنزل الدرج، وبينما كانت الفتاة تضع الدلو أمام الباب حدّثتها:

- كنت أريد طلب مستحقاتي أيضًا، فلم تكونوا في البيت الأسبوع الماضي...

قالت لها الفتاة:

- انتظري ثانية.

دلفت إلى الداخل وخرجت وفي يدها حقيبتها. أخذت تقلّب الحقيبة وتفتشها:

- أختي! ليس هناك إلا 9 ليرات، ماذا لو دفعنا 3 ليرات الأسبوع المقبل؟

ردّت مرجان: «لتبقَ، سآخذها كاملة الأسبوع المقبل».

ربما هذه نقود طعام الفتاة...

قالت الفتاة: «أنا آسفة يا أختي!» وأغلقت الباب. وبينما كانت مرجان تكنس الدرج انطفأ النور، فلوّحت مرجان بيدها فأضاء. نزلت بضع خطوات أخرى، وأخذت تكنس منحنية فانطفأ النور مرة أخرى... رفعت مرجان يدها إلى الأعلى مرة أخرى. وصلت إلى الجزء الملتوي من الدرج إلى الطابق الأول، فانطفأ النور. ومهما حرّكت يدها في الهواء؛ لم يلاحظها جهاز الاستشعار الموجود في سقف الطابق الثاني. وبينا كانت تكنس منحنية في الظلام، أضاء نور الطابق السفلي. وهذا يعني أن مرجان تستطيع إضاءة النور بمؤخرتها حتى... كنست حتى الطابق الأول ثم صعدت إلى باب الطابق الثاني. غمست الخرقة التي تمسح بها الدرابزين في المياه. كانت المياه دافئة. كلُّ ما تحتاج إليه ستجده عند الطلاب. فكّرت الفتاة في الأمر وأعطتها مياهًا دافئة،

وأضافت إليه الشامبو الذي تغسل به شعرها، وليس منظّف أطباق رديئًا أو منظّفًا برائحة الزهور الذي لا يزيل الأوساخ. آه، إن كان المسح من مرجان، فشامبو الشّعر من الطالبة... كان الشامبو يجول في المياه مثل دودة تغرق. ضربته مرجان بيدها ووزّعته. كانت مرجان تحب الطّلَبة. وبينما كانت تنظف الدرابزين، فتحت الطالبة في الطابق الثاني الباب:

- انظري يا أختي! لقد احتفظت بهذه الكتب، إنها كتب للأطفال. أعطيها لطفلك ليقرأها.

حين ظلّت مرجان تحدّق في الكتب التي سلّمتها لها سألتها الفتاة:

- أليس لديك طفل؟

ماذا تقول مرجان، أنها تذرّعت بالطفل وحصلت على إذن من المدير، ليس أكثر. لو سمعها وهي تقول «لا» الآن...

- لديّ... لديّ بالطبع...

أعطت الفتاة الكتب لمرجان وأغلقت الباب. نظرت مرجان إلى الكتب: عقلة الأصبع وبائعة الكبريت... عقلة الأصبع لحيدر... أمّان... وضعت الكتب جانبًا. وواصلت مسح الدرابزين. انطفأ النور ثانية. فرفعت مرجان يدها وأضاء. نزلت خطوة واحدة، انطفأ النور مرة أخرى، رفعت مرجان الخرقة التي في يدها ولوّحت بها في الهواء. أضاء. استمر مستشعر هذا الطابق يغلق ويفتح النور بشكل متقطّع مثل رفّة العين. مسحت مرجان قضبان الدرابزين ونزلت خطوة أخرى. انطفأ النور ثانية... فهزّت الخرقة مجدّدًا. كانت مرجان تلوّح بمنديلها كلما خطت خطوة مثل رقصة الدّبكة. طاق! سقطت قطرة مياه ضخمة من الخرقة ودخلت عين مرجان. فخلعت مرجان أحد قفّازيها وفركت عينيها. يبدو أن الطالبة لم تكن تستخدم الشامبو المضاد للدموع. ارتدت قفازها. انقطع النور. رفعت إحدى يديها، لكنه لم يضئ. رفعت كلتا يديها وأضاء النور.

صعدت إلى الطابق الثاني. غسلت خرقة مسح الأرضية في الدلو وبدأت في المسح

أمام الباب. انقطع النور. رفعت يدها. أضاء. تابعت المسح. كانت قد أخبرت المدير في الشهر الماضي فقط أن مستشعر الطابق الثاني ينطفئ بسرعة. ليتكم تصلحونه؟ وأضافت: «أقسم أنني سأتدحرج على ظهري في الظلام»... ليقُل إذا لم يكن يريدها أن تعمل. لم تعُد تريد أن تعمل. لم تعُد لديها رغبة في شراء دبس الرمان لثلاجتها، ولا تخصيص وقت لنفسها، ولا مدّ السَّبَت للبقال. الأمور... تسير من سيئ لأسوأ. حتى إنها باتت على استعداد أن تنظف العمارة التي تعيش فيها... لن يعود أمامها إلا تنظيف حفرة الأساس في غضون بضعة أشهر. انطفأ النور، رفعت مرجان يدها في الهواء. لم يضئ. فرفعت يدها الأخرى. وأضاءت العمارة مرة أخرى. جثت على ركبتيها وبدأت تمسح وهي تنزل الدَّرَج سلَّمةً تلو الأخرى. سحبت مرجان الخرقة التي في يدها إلى اليمين. انقطع النور. رفعت يدها، ولم يضئ، رفعت كلتا يديها. هاه! كان صاحب البيت قد أتى لباب بيتها في اليوم السابق. ولم تقُل له بالطبع إنها لا تستطيع دفع الإيجار لأنها دفعت للعرَّاف مبلغًا كبيرًا من المال... بل لأنها لم تتمكّن من تحصيل مستحقاتها كاملة، لكنها وعدته في الأسبوع المقبل... انطفأ النور مرة أخرى. لوَّحت مرجان بيديها في الهواء. أضاء النور. لم يأتِ صاحب البيت لقول ذلك. انطفأ النور مرة أخرى. رفعت مرجان كلتا يديها في الهواء. أضاء النور. قال صاحب البيت؛ تمّ تضمين العمارة في إطار التَّحوُّل الحضري... انطفأ النور ورفعت مرجان يديها للأعلى في الظلام. فأضاء... ولهذا ستُهدَم العمارة وتحلُّ محلَّها أخرى جديدة... ولا بُدَّ من إخلاء الشقة خلال ثلاثة أشهر. أظلمت العمارة مرة أخرى. ففتحت مرجان يديها ورفعتهما في الهواء. أضاءت العمارة. قالت له مرجان: «لا أستطيع التحرك! أمَا من حلّ غير هذا؟». لا. العمارة. ستهدم. قالها المالك وذهب. أظلمت العمارة. فتحت مرجان يديها في الظلام. لم تضئ. وبينما كانت تنزل درجة تعثَّرَت قدمها بتنُّورتها. كانت على وشك أن تتدحرج. ظلت متمسّكةً بالحائط. فتحت يديها في الظلام؛ يا إلهي، نفسي فداء لك. جِد لي حلًّا. أضاءت العمارة. لم تُنزل مرجان يديها؛ أفتح يدي وأتوسّل إليك يا الله. لم يبقَ لي سوى سقف فوق رأسي... أظلمت العمارة. جثت مرجان على الدرج ورفعت يديها أكثر قليلًا، «امنحني ضوءًا يا الله». لم يُضِئ النور. لا يرى المستشعر مرجان. وقفت وبدأت بالتلويح بيدها، لكن جهاز الاستشعار لم يزل لا يمكنه رؤية مرجان. أخذت تقفز في الهواء بغضب وتلوّح. لم يأتِ الضوء. صعدت

مرجان إلى الطابق الثاني، متمسّكةً بالحائط. أضاءت العمارة. أخذت الدلو وبينما هي نازلة إلى الطابق السفلي انطفأ الضوء. فلوّحت مرجان بيدها. وأضاء مرة أخرى. نزلت مرجان بسرعة وفي يدها دلو المياه. فخرجت من العمارة. وسكبت المياه في الشارع.

الطابق الأول

صعدت مرجان إلى الطابق الأول والدلو الفارغ في يدها. وضعت الدَّوَّاسة التي أمام الباب ووعاء طعام القطط على درجة علوية. انقطع النور. رفعت مرجان يدها، فأضاء. وبما أن نور مدخل العمارة يضيء هذا الطابق؛ كان بإمكانها الرؤية بسهولة أكبر حتى لو انطفأ النور. كان مواء القطة يصدر من الداخل. كنست أمام الباب. أين كانت ستجد بيتًا... فالبيوت في هذه الأنحاء هووووو... باهظة... أين ستسكن حتى تُبنَى عمارة جديدة بدلًا من بيتها؟ كما أنه حتى لو بُنيَت فمَن يعلم بكم سيؤجِّرونها؟ يؤجِّرون الشقة في المباني المشيدة مكان بيوت العشوائيات التي كانت تعيش فيها عائشة بألفين وخمسمائة. وعندما كانت تمر أمام وكلاء العقارات... هووووو... وبالنسبة لشقق البدروم الصغيرة مثل شقتها... عمل إضافي؟ كان عليها العثور على سلالم لناطحة سحاب؛ وليس مجرد عمارة أو عمارتين.

انقطع النور. لوَّحَت مرجان بيدها. لم يُضِئ. المكنسة الكهربائية عالقة في شيء ما. وقفت مرجان ولوَّحَت. أضاء الضوء... علقت المقشَّة في شيء ما... براز. نعم براز. لا ليس لإنسان. يبدو أن القطة هربت من البيت وتغوَّطت. صعدت مرجان إلى الطابق الثالث وأخذت الجاروف ثم نزلت. دفعته بالمقشَّة إلى الجاروف. لقد فعلتها للتو، ماذا يطعمون الحيوان؟! إنه غائط لَزِج. صبَّت مرجان بعض المياه على الحجر وغسلت طرف المقشة كي لا تتَّسِخ السلالم بالخراء وهي تكنس. اتكأت بذراعها على جدار مدخل العمارة وتنفَّسَت الصعداء. كانت تتصبَّب عَرَقًا. خلعت سترتها وعلَّقتها على درابزين المدخل. صعدت للأعلى وبلَّلَت الخرقة ثم بدأت في فرك الدرابزين. كان لهذا الطابق أهمية خاصة؛ فهو طابق المدير... مرجان... إذا لم تكوني تريدين العمل، فلتقولي. أصبح الحي غاليًا. أخذت تفرك قضبان الدرابزين بشدة. لو انتقلت لمنطقة أخرى.. ماذا تأكل وتشرب؟ فالشقق التي تعمل بتنظيفها هنا. أين ستجد عملًا في مثل كل هذه العمارات حيث ستذهب؟ مسحت مرجان الدرابزين حتى الطابق الأرضي ثم عادت إلى الطابق الأول. سكبت المياه من الزجاجة التي أمام الباب في الدلو. وضغطت على المنظِّف مرات عدة. أخذت تدعك الحجارة بكل قوَّتها. إنه طابق المدير. وبينما كان تنزل الدَّرَج وصلت إلى الدرجة التي عليها أثر لبراز القطط. نظَّفي

Telegram:@mbooks90

على الأقل براز قطّتِكِ تلك... لا، أيمكنهم تنظيفها بأنفسهم؟ هناك مرجان. وإن لم تكن مرجان تريد تنظيفها فلتَقُل. غمست الخرقة في الدلو وغسلتها. ثم عصرتها. ومسحت حتى الطابق الأرضي. أخذت الدلو وغادرت العمارة. فسكبت المياه في الشارع.

المدخل

لم يعُد لها حاجة بالمستشعر أو النور بعد الآن. كان الطابق الأرضي مضاءً بالضوء الذي يدخل من نافذة باب العمارة. رفعت دوَّاسة شقة الطابق الأرضي وأسندتها إلى الحائط. وفتحت باب العمارة. ثم دفعت كل الغبار الذي تراكم في هذا الطابق، مع كل الغبار الذي كنسته من الأعلى؛ إلى الخارج. مسحت الدرابزين. آه لقد نسيت! صعدت إلى الطابق الثاني. التقطت كتب الأطفال التي تركتها على الدَّرَج. ألن يقولوا إذا نسيتها: «كيف يمكنها أن تنسى شيئًا يخصُّ طفلها عند الباب ما دام لديها طفل؛ ألم تحصل على إذن للذهاب إلى اجتماعات أولياء الأمور؟!».

وضعت الكتب في حقيبتها، وعلَّقت حقيبتها على الدرابزين المؤدي إلى البدروم. لم تكن تخاف من سرقة حقيبتها بينما كانت تنظف الدرج في الطوابق العلوية. فماذا فيها لتُسرق؟! كان الله في عون اللص الذي هو في حاجة إلى أموال مرجان غير الموجودة. أفرغت برميل المياه الموجودة أمام شقة البدروم في الدلو. لقد نفد المنظِّف الموجود في الزجاجة. وعندما همَّت بطَرْق الباب، فكَّرَت أنهم سيعبسون بوجهها. ويقولون «لقد وضعنا ما يكفي من المنظفات في الزجاجة لمسح العمارة بأكملها، لا بُدَّ أنكِ أسرفتِ». أليس كذلك؟! كل شيء يُتوَقَّع من امرأة طلبت فجأة زيادة في راتبها بنسبة خمسة وعشرين بالمائة. غمست يدها المغطاة بالقفاز في الدلو، وأخذت بكفِّها المياه، فوضعتها في زجاجة المنظف، ثم رجَّتها.

سكبت بعض المياه المُرغَّاة من الزجاجة في الدلو. كانت المياه تخرج من قفازيها. فنزعت قفازيها وأفرغت المياه في الدلو. بدأت بمسح الأرضية. لو لم تُخلِ مرجان بيتها في غضون ثلاثة أشهر... مع أن مالك البيت نفسه سيغادره ومرجان ليست إلا مستأجرةً... كانوا سيطردونها بالقوة. أفرغت مرجان الدلو أمام الباب ودلفت للداخل. كانت أرضية المدخل قد جفَّت. أخذت الجاروف والمقشة وتوجَّهت إلى البدروم.

البدروم

عندما نزلت مرجان إلى البدروم، تذكَّرَت قول المرأة ذات نعل إكليل الزهور التي في الطابق الرابع؛ لا تُلقي بما تكنسينه للأسفل، واجمعيه بالجاروف، لئلّا تمتلئ الأحذية التي يضعها سكان البدروم أمام الباب بالغبار. إذ لم يكن هذا المكان مفتوحًا على مدخل العمارة مثل غيره من الطوابق في العمارة حتى ينفض الغبار عنه...

كان هناك زجاج مكسور على الدرج. يلمع باللون الأخضر. يبدو أنها كانت زجاجة صودا أو كازوزة. جمعتها بالجاروف بعناية حتى لا ينغرز الزجاج بأيدي الأطفال الذين تأتي أصواتهم من الأسفل إذا تعثَّروا وسقطوا على الدَّرَج -لا سمح الله-. نزلت إلى باب العمارة. هووووو... حذاء، حذاء، حذاء، حذاء... خلعت مرجان قفازيها. وجمعت أحذية الأطفال القابعة أمام الباب ووضعتها على الدرجات الهابطة إلى مخزن الفحم. لم تكن الأحذية جنبًا إلى جنب على أية حال. ويبدو أن الأطفال داسوا .وراء بعضهم على الأحذية الأخرى ودخلوا إلى البيت وهم يخلعونها ويركلونها. نمرة 25، نمرة 28، نمرة 30، نمرة 34... كان لديهم أربعة أطفال، وعدد لا يُحصَى من الأحذية، ومظلات أطفال معلَّقة على أنبوب عداد الغاز، وعشرون زجاجة مياه على الأقل ممتلئة على السلالم الهابطة من البدروم إلى مخزن الفحم. حتى إنهم استخدموا الجزء العلوي من خزانة عداد المياه كرفٍّ للأحذية، ووضعوا بعض الأحذية فوقه.

كان هناك أيضًا صوت بكاء طفل يصدر من الداخل. أي أن لديهم خمسة أطفال. ما شاء الله. انطفأ النور. لوَّحت مرجان بيدها وفتحته. كنست الغبار من أمام الباب بالجاروف. صعدت إلى الطابق العلوي وهي تفرك خشب الدرابزين. ثم نزلت عائدة إلى البدروم وهي تلمّع قضبان الدرابزين. أخذت الجاروف وإحدى علب المياه الموجودة أمام الباب وصعدت إلى الطابق الأرضي. سكبت المياه من العلبة في الدلو وسكبت المياه المخلوطة بالمنظِّف من الزجاجة فيه. ثم بدأت في النزول ماسِحةً الدَّرَج. وبينما كانت فسيفساء الطوابق العليا ذات لون سيموني وبُنّيّ محمرّ، كان حجر الدرج الهابط إلى البدروم رماديًا بالكامل.

وجدت بضع قطع أخرى من الزجاج في أسفل الجدار. من الجيد أنها لم تخلع القفازين وترميهما لاستيائها من أنهما يمرّران المياه. انطفأ المصباح. وقفت مرجان. أضاء المصباح. صعدت بضع درجات ووضعت قطع الزجاج في الجاروف. غسلت الخرقة. هبطت الدرجات ماسحةً السلالم حتى باب شقة البدروم. أصوات الأطفال تغرّد من الداخل... مسح مرجان أمام الباب. خلعت قفازيها. وقامت بمزاوجة الأحذية الموضوعة على الدرجات الهابطة إلى مخزن الفحم ورصّتها أمام الباب. أربعة أحذية للأطفال على التوالي. وفي الداخل طفل يبكي... جفّفت السلالم جيدًا. أخذت الدلو وإحدى العلب المملوءة بالمياه ثم صعدت إلى الطابق العلوي. صبّت مياه الدلو خارج باب العمارة.

أمام باب العمارة

شطفت مرجان الدلو بالمياه التي صبّتها من العلبة وسكبت المياه القذرة أمام الباب. ملأت الدلو مرة أخرى بالمياه وأضافت بعضًا من المياه بالمنظف المتبقية في قاع الزجاجة. فتحت نافذة باب العمارة ومسحتها بخرقة نظيفة. كان هناك إعلان لمطعم صفيحة باللحم تمّ افتتاحه حديثًا بين قضبان الباب المزخرفة بالزهور التي أمام الزجاج. أخذته ووضعته جانبًا. كما وضعت الفواتير المحشورة بين القضبان على صندوق عداد المياه في الطابق الأرضي حتى لا تتبلّل. أغلقت النافذة. بدأت بمسح الباب الحديدي. وبمجرد أن مسحتها بالخرقة، ضربت رائحة صدأ قوية أنفها. أخذت تدعك الباب وتفركه... تركت الخرقة المسودّة جانبًا. ثم نزلت إلى البدروم فأخذت عبوة مياه أخرى. وملأت الدلو. ثم نزلت إلى الخلف وهي تمسح الدَّرَج الهابط من باب العمارة إلى الشارع. أفرغت الدلو على المنحدر. انسكبت المياه برغوتها في صمدية... اعتدلت مرجان واقفةً. هبّت نسائم باردة فبرد عَرَقها. خلعت قفازيها. سحبت حجابها إلى أسفل حول رقبتها. تطلّعت إلى البحر البادي في نهاية المنحدر، واتّكأت على أسطوانة الغاز الطبيعي أمام الباب. كانت المياه مُزبِدَةً أسفل التل... بعدما هُدم بيتها... لم يَعُد بإمكان زوجها العثور على مرجان، حتى لو عاد...

---

(1)غرفة كبيرة يؤدي فيها العلويون عباداتهم.

(2)دواء للحموضة.

(3)وجبة خفيفة بين الإفطار والغداء.

(4)شايكارا: مدينة تقع في طرابزون على البحر الأسود، والميم للملكية للمتكلم (خاصتي).

(5)طائر الحب: أحد أنواع طيور الببغاء.

(6)أبلة: لقب للأخت الكبيرة.

(7)لقب الزوجة الرئيسية للسلطان.

(8)فاكهة موجودة في تركيا تشبه البرقوق.

(9)لبيير لوتي (1850-1923): كاتب وروائي فرنسي.

(10)الفتى الأقرع: بطل سلسلة حكايات وطُرَف للأطفال.

(11) ماركة منظفات مزيلة للدهون.

Telegram:@mbooks90